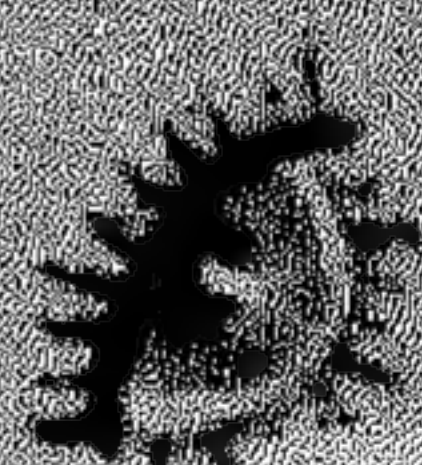


كتاب اليوم

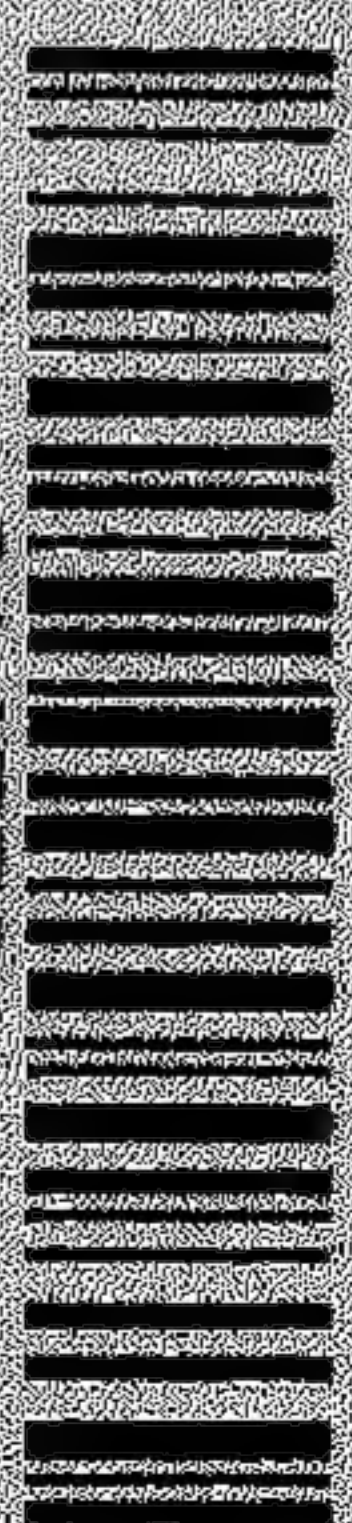
طله حسين

بصائر عن مؤسسة اخبار اليوم

● العدد ٢٩٩ ● أكتوبر ١٩٩٤ ●



Bibliotheca Alexandrina



0143521



طه حسين

جنة الحيوان

● العدد ٢٩٩ ● أكتوبر ١٩٨٩ ●



كتاب اليوم

انتس

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

يسعيد سنبل

العدد ربيع أول ١٤١٠ هـ

٢٩٩ أكتوبر ١٩٨٩ م

تشرين أول

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوي ١٢ جنيه مصري

البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربي

والافريقي ١٥ دولار امريكي او ما يعادله

باقي دول العالم واوروبا والامريكتين

واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكي او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ اش الصحافة

القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

اسعار

كتاب اليوم

المغرب ١٥ درهم

لبنان ٥٠٠ ليرة

الأردن ٧٥٠ فلس

العراق ٣٠٠٠ فلس

الكويت ٧٠٠ فلس

السعودية ٧ ريالات

السودان ٤٠٠ قرش

تونس ١٤٠٠ مليما

الجزائر ١٧٥٠ سنتيما

سوريا ١٤٠٠ ق س

الحبشة ٦٠٠ سنت

البحرين ٨٥٠ فلس

سلطنة عمان ٧٠٠ بيعة

قطر ١٠٠ سنت

اليمن ٨ ريالات

الموئل بيجيريا ٨٠ بي

السفغال ٦٠ فرنك

بيسة الامارات ٨ درهم

قطر ٨ ريالات

انجلترا ١٢٥ غني

فرنسا ١٠ فرن

المانيا ٥ مارك

في الخارج

إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة

هولندا ٥ فلورين

باكستان ٣٥ روبية

سويسرا ٤ فرنك

اليونان ١٠٠ دراخمة

النمسا ٤٠ شلن

الدنمارك ١٥ كرونات

السويد ١٥ كرون

الهند ٣٥٠ سقتا

كندا امريكا ٣٠٠ سقت

البرازيل ٤٠٠ كرويزو

نيوزيلندا ٣٥٠ سقتا

لوس انجلوس ٤٠٠ سقت

استراليا ٤٠٠ سقت

● الغلاف : حسين بيكار

● الرسوم والملكية : محمد عفت



الشعبان

كان مشرق الوجه ، باسم الثغر ، خفيف الحركة ،
فصيح اللسان لا يكاد يجلس إلى أحد أو يجلس
إليه أحد ، إلا أحس جليسه منه قلبا يضطرب
تحمسا للإصلاح ، ونفسا تتوثب إلى المثل
العليا ، وعقلا لا يرى حوله إلا شرا ولا يريد أن
يطمئن أو يستقر إلا إذا أزيل الشر ومحيت آثاره
ومعالمه ، وقام مقامه هذا الخير المطلق الذى يشمل كل إنسان ، وكل
شئ ، والذى يسبغ على من يشمله وما يشمله جمالا حلوا هادئا ،
ولكنه قوى ملح كأنه ضوء الشمس ، لا يمنح الأشياء والأحباء جمالا
وبهاء فحسب ولكن يبعث فيها وفيهم حياة وخصبا وقوة ونشاطا .
وكان تحمسه للإصلاح وطموحه إلى الخير ودعاؤه إلى العدل يخرج
به أحيانا كثيرة عن طوره ، ويتجاوز به الهدوء المألوف إلى شئ من
العنف لم يكن المصريون يعرفونه فى ذلك الوقت ، وإذا هو لا يستقر
فى مكانه مهما يكن هذا المكان فى دار أو ناد أو قهوة أو ديوان ، وإنما
يثب من مجلسه ثم لا يثبت فى مقامه ليتحدث إلى من حوله كما يتحدث
الخطيب ، وإنما يذهب ويجيء ويأتى من الحركات بيديه ما كان يخيف
جلساءه على ما قد يكون حوله من الأشياء ، وإذا أية الغضب تظهر فى
وجهه ، قوية حادة فيظلم بعد إشراق ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير
من عينيه المضطربتين شرر مخيف ، وينفجر من فمه صوت هائل يهدر
بالجمل التى تتتابع سراعا فى مثل قصف الموج وعصف الرياح
العاتية ، وإذا أصحابه يأخذهم شئ من الدهش لا يلبث أن يستحيل
إلى وجوم متصل وذهول غريب ، لا يدرون أهما يصوران الإعجاب
والرضى أم هما يصوران الإنكار والسخط أم هما يصوران الحذر
والخوف .

وكان من الحق أم يحذروا أو يخافوا ، فلم تكن الأمور في ذلك الوقت تجري في مصر كما أخذت تجري منذ كان في مصر استقلال وحرية ودستور وبرلمان ، وإنما كانت الأمور تسعى متعثرة لا تكاد تنهض إلا لتكبو ولا تكاد تمضي إلا لتقف فقد كان في مصر احتلال أجنبي يتغلغل سلطانه الظاهر والخفي في جميع المرافق العامة والخاصة ، وكان في مصر سلطان لكان وطني شديد الارتباب عظيم الاحتياط كثير التلون يميل إلى المواطنين مرة وإلى المحتلين مرة أخرى ، ويحاول أحيانا أن يرضى أولئك وهؤلاء ، فلا يظفر إلا بغضب أولئك وهؤلاء.. وكان هذا كله يفسد الجو المصري ويجعله خانقا منهكا للقوى لان الناس كانوا موضوع النزاع بين هاتين السلطتين لا يكادون يرضون إحداهما إلا وفي نفوسهم إشفاق من الأخرى ، وكان لكل واحدة من هاتين السلطتين عيونها وجواسيسها قد انبثوا في الأندية والقهوات والدواوين واندسوا في المجالس الخاصة . فهم يحصون على الناس ما يقولون ثم يصورونه كما يحبون ، ثم يرفعونه إلى السلطان الأجنبي أو إلى السلطان الوطني . وإذا أثار ذلك واضحة فيما يكون من رضى هذا السلطان أو ذاك ومن غضب هذا السلطان أو ذاك . فكان المفكرون وذوو الراى يعيشون في قلق متصل كأنما يسعون على الشوك فليس غريبا أن يثير صاحبنا في نفوس جلسائه شيئا من الحذر والخوف إذا أخذته أزمته الإصلاحية تلك ، وكانت كثيرا ما تأخذه فيثور ، أو قل يستحيل إلى ثورة تريد أن تلتهم كل شيء .

وكان صاحبنا حديث عهد بأوربا قد أقام فيها أعواما متصلة واتم فيها درسه ورأى فيها حياتها الحرة الطامحة التي لا تقيد أوضاع النظام الاجتماعى كما كانت تقيد الحياة المصرية في ذلك الوقت ، ولا تغلها إغلال السلطان السياسى كما كانت تغل حياة المصريين في ذلك الوقت أيضا ، وإنما رأى حياة سمحة طليقة قد عرفت للإنسان كرامته والفرء حقه فى أن يأتى ويدع من الأمر ما يشاء . وفى أن يرى ويقول ما يشاء مادام لا يؤذى غيره بقول أو عمل . وقد شارك فى هذه الحياة واستمتع بما كانت تمتاز به من السماح واليسر . وكان كغيره

من المصريين الذين يعيشون في أوربا لا يكاد يرى شيئا يعرفه أو ينكره إلا وأزن بينه وبين ما يشبهه في الحياة المصرية من قريب أو بعيد ، وكانت هذه الموازنة تغيظه وتحفظه بالطبع لأنها كانت تضطره دائما إلى أن يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن في أوربا رقيا ماديا ومعنويا ، وبأن لأهل أوربا حرية في القول والعمل . وبأن مصر بعيدة كل البعد من هذا الرقي وبأن المصريين قد حرموا هذه الحرية كل الحرمان ، فعاد إلى مصر وللغيط في قلبه نار تنوهج وللغيرة على نفسه سلطان لا يكاد يهدىء من ثورته أو قورته ، ومن أجل ذلك كان صورة ناطقة حية قوية للسخط على كل شيء والضيق بكل شيء والحرص على تغيير كل شيء . وقد أقبل الشباب عليه حين عاد من أوربا معجبين بل مفتونين . ولكنهم لم يلبثوا أن فتروا ثم تفرقوا شيئا فشيئا ، منهم من رده عنه الخوف ، ومنهم من رده عنه القصور ، ومنهم من رده عنه السأم . ولا بد من الاعتراف بأن أحاديث صاحبنا على عنقها وثورتها كانت تغمض أحيانا فيعجز أوساط المثقفين عن فهمها ، وكانت تتكرر أحيانا أخرى فيسأم السامعون لها من كثرة تكرارها . وأكبر الظن أن صاحبنا عاد من أوربا دون أن يتعمق من أمرها شيئا وإنما غرته المظاهر فأعجب بها وخدعته هذه الحضارة الأوربية ففتن بها ، ورأى في هذا الإعجاب وفي هذه الفتنة شيئا من الامتياز يتملق كبرياءه فأغرق فيهما إغراقا شديدا . وقد كان مالم يكن بد من وقوعه فنذر به السلطان وأشفق منه ونصب له شيئا من كيد خفي حاول أن يثبت له وينفذ منه ولكنه لم يستطع ثباتا ولا نفوذا فاضطر إلى أن يرجع أدراجه ويعود إلى أوربا هذه التي ملكت عليه قلبه ونفسه وفتنته بمحاسنها فتونا . ولم يكد يستقر في أوربا حتى دهمته الحرب الماضية فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم والظاهر أنه انتفع بهذه الإقامة الثانية انتفاعا عظيما فقد عاد من أوربا بعد الثورة المصرية الأخيرة قرأى مالم يكن ينتظر أن يرى . لم ير تغيرا في الحضارة المادية ولم ير تطورا ذا بال في الحياة العقلية ولكنه رأى حرية لم يكن له بها عهد ، حرية لا تحفل بمكر الاحتلال الأجنبي ولا باحتياط السلطان الوطني ولا بالعيون

والجواسيس ، ولا بالأحكام العرفية الانجليزية التي ظلت مفروضة على مصر أعواما بعد انتهاء الحرب ، ولا بهذا الاصطدام العنيف الذى كان يحدث من حين إلى حين بين الشباب المصريين والجنود البريطانيين . رأى حرية لا تحفل بشيء من هذا ، وإنما تمضى أمامها لا تلوى على شيء ولا يرد لها شيء ولا تزيدها العقبات والمصاعب إلا قوة واندفاعا . ورأى المصريين يقولون فى كل شيء لا يتحفظون ولا يتخرجون ، ورأهم ينكرون من أمرهم أكثر مما كان ينكر هو قبل الحرب فهم لا يرضون عن الاحتلال الأجنبى ، وهم لا يرضون عن النظام السياسى الوطنى ، وهم لا يطمئنون إلى حياتهم الاجتماعية ، وإنما يخرجون عليها فى رفق مرة وفى عنف مرة أخرى ، وهم على كل حال يتوثبون إلى الإصلاح ، ويطمحون إلى المثل العليا ، لا يتحدثون إذا لقى بعضهم بعضا إلا فى الحق والخير والعدل والحرية والاستقلال والرقى فى الحياة المادية والعقلية .

رأى هذا كله فوقف منه موقف الحيرة لم يدر أيرضى عنه أم يسخط عليه . ولو أنه جرى مع طبيعته الأولى لرضى كل الرضا عما رأى ولمضى مع مواطنيه جادا فى الإصلاح طامحا إلى الرقى مطالبا بالاستقلال . ولكن إقامته فى أوروبا أثناء الحرب واحتماله ما جرت به الحرب على الناس من خطوب ، وما ألفت عليهم من أثقال قد اضطره إلى شيء من المرونة وسعة الحيلة وبذل الجهود الملتوية ليتقى الشر أن عرض الشر وليلتمس الخير أن سنج الخير ، فعاد من أوروبا للمرة الثانية وقد خلقت له الحرب خلقا جديدا . كان قبل الحرب يسبق مواطنيه إلى الرقى والطموح . فأصبح بعد الحرب يستأخر عن مواطنيه ولا يكاد يشاركهم فى توثبهم إلى الرقى والطموح . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه سيرة وسطا فهو لا يستطيع أن ينكر ماضيه وهو لا يستطيع أن يقاوم هذا الاندفاع المصرى الجارف إلى التطور العنيف وهو فى الوقت نفسه لا يحب أن يشارك مواطنيه فيلهج كما يلهجون بالحرية ، ويحرص كما يحرصون على الاستقلال ويطمع كما يطمعون فى مجارة أوروبا حيناً ومقاومتها حيناً آخر . وقد زاده حرصا على هذه

السيرة الوسط انه قد تعب في أوربا وشقى بما لقي فيها من جهد وضيق ، وعاد إلى مصر وفي نفسه ميل إلى الدعة وحاجة شديدة إلى الراحة . ورغبة ملحة في أن يعوض الوقت الذي أضاعه في أوربا ، وأن يستدرك من أمره مافات ويحقق لنفسه من المنافع العاجلة والأجلة ما لم يستطع تحقيقه حين كان ثائرا فائرا مطالبا بالإصلاح . وقد رأى المصريين قد انقسموا فيما بينهم قسمين ، فريق يعتدل ، وفريق يتطرف فلم يرد أن يعتدل مع المعتدلين ، فيعد متأخرا ولا أن يتطرف مع المتطرفين فيتكلف ما يتكلفون من الجهد ويحتمل ما يحتملون من العناء . وقد رسم له هذا كله سيرته الوسط فعرف الثورة المصرية ولم ينكرها ، وأثنى عليها ولم يشارك فيها ، واتخذ لنفسه الأصدقاء والإخلاء من المعتدلين والمتطرفين جميعا ، ولم يقبل في ذلك مراجعة ولا لوما ، فان الصداقة ترتفع عن السياسة وأعراضها وأمراضها والرجل الحر حقا هو الذي لا تلهيه السياسة عن إرضاء حاجة قلبه إلى الاخاء الكريم والمودة الصافية والوفاء المتين .

وكذلك كنت تراه في مجالس المعتدلين يسمع منهم ولا يرد عليهم إلا قليلا وكنت تراه في مجالس المتطرفين ، يسمع منهم ولا يجاريهم إلا بمقدار ، وكنت تراه في كل حفل يقيمه المعتدلون وفي كل حفل يقيمه المتطرفون يشهد الحفلين جميعا لان له الأصدقاء والإخلاء بين أولئك وهؤلاء . ولكنه كان ماهرا أشد المهارة في الاستخفاء حين الجد وحين تبدى الخطوب عن نواجذها لأولئك وهؤلاء . هنالك يلتبس القوم صاحبنا فلا يجدونه ولا يقفون له على أثر . وهنالك يسأل القوم عن صاحبنا اهل المعرفة فلا يحدثهم عن ثابت لاق كما يقول الشاعر القديم حتى إذا هدأت العاصفة ، واستقرت الأمور في نصابها واطمأنت القلوب في الصدور ، نظر المعتدلون والمتطرفون فإذا صاحبنا يغدو بينهم ويروح كعهدهم به دائما مشرق الوجه باسم الثغر عذب اللفظ حلو الحديث .

وقد استطاع من الأمر ما لم يستطعه من المصريين إلا الأقلون عددا فأرضى المحافظين والمسرفين في المحافظة بنوع خاص ، وأرضى

المجددين والغلاة فى التجديد بنوع خاص . ثم جعلت الأحوال تحول
والأمور تتغير وتتابع المحن على مصر ، وكان الطبيعى حين تمتحن
مصر فى أمالها وأمانيتها وفى حررتها الداخلية والخارجية أن يتطرف
المعتدل ويجدد المحافظ أن كان صادقا فى اعتداله ومحافظته لا يتأثر
فيهما بالمنفعة ولا يتقى بهما الخوف .

ولكن صاحبنا لم يتطرف وقد تطرف المعتدلون من حوله ، ولم يجدد
وقد جدد المحافظون من حوله ، وإنما ظل كعهده دائما مشرق الوجه
باسم الثغر خفيف الحركة عذب اللفظ حلو الحديث .

وربما أحس المحافظون المصريون على المحافظة منه ميلا إليهم ،
وحرصا على أن تتصل أسبابه بأسبابهم ، ولكن على شرط ألا تنقطع
أسباب المودة والأخاء بينه وبين المتطرفين ، من الحقائق المقررة أن
صلات الود والأخاء يجب أن ترتفع عن اختلاف الراى فى السياسة
والنظم الاجتماعية . وقد تلقاه المحافظون حفيين به مستبشرين بقربه
منهم واتصاله بهم واغضى عنه المتطرفون لأنه صاحب وفاء يرتفع
بالصداقة عن أغراض السياسة وأمراضها . ثم أصبحت المحافظة فى
بعض الأوقات لونا من ألوان الحفاظ والغيرة على مصالح الوطن
وكرامته وأصبح من البدع المحبوب أن يتحدث الناس بأنهم محافظون
وأن يسرفوا فى النعى على المتطرفين فأظهر صاحبنا أنه محافظ يذكر
مجد الوطن ويحرص على تقاليد وينكر الخروج على النظام المألوف
والسنة الموروثة ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يقصر فى ذات أصدقائه
المتطرفين وإنما جاملهم حين كانت تحسن المجاملة وواساهم حين
كانت تحسن المواساة ، وضمن بذلك رضاهم عنه وأعضاءهم عن غلوه
فى المحافظة ، وفى أثناء هذا كله مضت أموره على خير ما يجب .
شجعه المحافظون حين كان السلطان يصير إليهم ، وأغضى عنه
المتطرفون حين كان السلطان يستقر فيهم ، وعرف عامة الناس
وخاصتهم أنه رجل لا يحب الأحزاب ولا يشارك فى سياستها ، وإن كان
محافظ الميل قديم الهوى معتدل السيرة والراى جميعها .

قلت لصاحبي أأستطيع أن تحدثني بما تريد إليه من هذه القصة التي لا تنتهي . قال صاحبي لا أريد إلا إلى شيء يسير جدا وهو ان الذين يريدون العافية وقضاء المأرب وتحقيق المصالح ، وتجنب الأذى في أنفسهم وأمالهم وأعمالهم يحسن أن يسيروا سيرة هذا الرجل البارع . قلت لصاحبي . ليس كل الناس يقدر على أن يكون ثعبانا وليس من الخير أن تكثر في مصر الثعابين





حديث الأوز

وانا أعتذر إلى القراء من هذا العنوان الظريف
الطريف الذي لم أكن أحب أن اصطنعه على مافيه
من طرافة وظرف لانه اشبه بأحاديث الفكاهة
والمزاح ، لا بأحاديث الجد المر الذي يجب أن
نحرص عليه حين نأخذ في شئون التعليم .
ولكن صديقا أديبا من اصدقائنا الأدباء أراد أن
يتحدث عن نشر التعليم فضرب الأوز له مثلا ، يذهب في ذلك مذهب
الفكاهة الساخرة ، وأن كانت شئون التعليم في هذه الأيام لاتحتمل
فكاهة ولا سمر .

تحدث الصديق الأديب ان صاحبه جحا زعم لقاضى المدينة انه
يستطيع ان يأتى بتسع عشرة أوزة فيحبسهن فى حجرة من الحجرات ،
ثم يدخل عليهن عشرين رجلا فلا يخرج واحد من هؤلاء الرجال إلا معه
واحدة من هؤلاء الأوز ، وقد أنكر القاضى هذا الحديث لما بين هذين
العديدين من الاختلاف . ولكن جحا ألح فيه وأصر عليه ، فاضطر
القاضى إلى أن يستجيب له . وأقبل جحا بأوزة التسع عشرة وأدخل
القاضى عليهن عشرين رجلا كان بينهم صراع وقراع سالت له الدماء
وشاھت له الوجوه ، ثم جعل الرجال يخرجون رجلا فى أثر رجل ومع كل
واحد منهم أوزته حتى خرج آخرهم ، وليس له شىء ، فلما سأل
القاضى جحا عن معجزته ، أنباه بأنه لم يرد إلا عبثا ليبين له وللناس
أن الديمقراطية الصحيحة لاتحدث المعجزات ، ولا تخلق
المستحيلات .

والمغزى الذى قصد إليه الصديق الأديب هو أن الذين يريدون أن ينشروا التعليم بغير حساب ، وأن يحشروا الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة ، إنما يذهبون مذهب جحا حين أراد أن يقسم التسع عشرة أوزة قسمة سواء على عشرين رجلا فلم يبلغ من ذلك ما أراد . والمثل كما ترى رائع ، بارع وقاصم ، فاصم لا تقوم له حجة ولا يثبت له دليل ، فليست الديمقراطية إذن كلاما يقال ولا هى دعوة تنشر وتذاع وإنما هى أعمال يقدم عليها أصحابها عن بصيرة ويحققونها عن روية . وليس يكفى أن يقال للناس كلوا ليأكلوا ويأمنوا شر الجوع وليس يكفى أن يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وإنما ينبغى أن يهيا الطعام على قدر الطاعمين وأن يهيا العلم على قدر المتعلمين فإن لم نفعل كانت دعوتنا إلى الطعام والعلم أشبه بعيبث جحا حين أراد أن يقسم تسع عشرة أوزة على عشرين رجلا قسمة سواء .

ومن قبل الصديق الأديب ضربت للتعليم أمثال أخرى تتصل بالطعام فقال قائلون أن الذين ينشرون العلم بغير حساب ويحشرون الأعداد الضخمة فى الأماكن الضيقة كالذين يلغون الطعام القليل إلى الجماعة الكثيرة ، فما هى إلا أن يلغى هذا الطعام حتى يكون الزحام والخصام والاصطدام ثم يفترق الناس وقد أذى بعضهم بعضا ولم يظفر بالطعام منهم إلا قليل .

والغريب أن يقال مثل هذا الكلام فى هذه الأيام التى تواجه الحكومات مشكلة التموين ومعضلة الطعام القليل يلغى إلى الجماعات الضخمة من الناس .. ولا يفكر الذين يقولون هذا الكلام ويكتبونه فى أن حوادث حياتهم اليومية تنقض ما يقولون نقضا . فإن الحكومة إنما قامت لتجرى الأمور بين الناس بالقسط ، وتقضى بينهم بالحق وتمكن كل واحد منهم من أن يأخذ نصيبه الضئيل من الطعام القليل لا يغدو فى ذلك بعضهم على بعض ولا يظلم القوى منهم فى ذلك الضعيف ، وليس المهم أن تنجح الحكومة فى ذلك أو تخفق وأن تعدل الحكومة فى ذلك أو تجور ، وإنما المهم أنها انشئت لتجرى أمور الناس بينهم بالقسط ولتطعم عشرين رجلا من تسع عشرة أوزة ، والخطأ الذى انحرف فيه

جحا عن الصواب ولم يكن للقاضي أن يجاريه فيه هو انه أراد ان يقسم التسع عشرة أوزة على العشرين قسمة سواء ، ولو انه أصلح الأوز وهياه للطعام لجاز أن يغذى بهن مائة أو مئات من الناس دون ان يقع بين هؤلاء الناس صراع أو قراع ، ولكن جحا لم يكن مصرياً ولا عربياً ، وربما كان له حظ من دعاية ، ولكنها دعاية غير عاقلة . ولو قد كان جحا مصرياً عربياً لعرف أن في مصر أمة تمتاز بخصلتين أحدهما القناعة والرضى بالقليل ، والآخرى الإيمان بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات .

وليس كل مصري حريصاً على أن يأخذ أوزة صحيحة حية يفرح بها في بيته وينظر إليها تذهب وتجيء تبسط جناحيها وتقبضهما وترسل في الهواء صوتها الذي يطرد الملائكة ويدعو الشياطين كما يقول أهل الريف . ليس كل مصري حريصاً على أن يظفر بين حين وحين بجزء أوزة عظيم أو ضئيل بل ليس كل مصري حريصاً على أن يذوق طعم الأوز أو يشم ريحه ، وإنما المصريون قوم قانعون أكثرهم يرى الأوز ويسمع عنه ، ولكنه لا يبلو طعمه ولا يعرف له مذاقاً .

وهو على ذلك لا ينكر الحياة ولا يضيق بها ولا يسخط عليها فإن أتبع له قليل من لحم الأوز أو من مرقه أو من ريحه حمد الله وأثنى عليه ، وشكر له هذه النعمة التي لم يكن ينتظرها ولا يرجوها . وقد أراد الله بالمصريين خيراً فلم يجعل العلم أوزاً ، ولم يجعل الأوز علماً ، وإنما جعل العلم شيئاً كهذا الهواء الذي يمتلئ به الجو ويستطيع الناس جميعاً أن يتنفسوا ، وجعل العلم شيئاً كهذا الماء الذي يفيض به النيل ويستطيع الناس جميعاً أن يشربوه ، وقد يكون الهواء نقياً وقد تكدره رمال الصحراء ، فالناس يتنفسونه على كل حال . . وقد يكون الماء صفواً وقد تشوبه الجراثيم فالناس يشربونه على كل حال . وقد يكون الطعام كثيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون صالحاً وقد يكون رديئاً ، فالناس يأكلونه على كل حال لأنهم لا يريدون أن يموتوا مختنقين ولا أن يموتوا ظامئين ولا أن يموتوا جائعين ، وقد تكون المدرسة واسعة وقد تكون ضيقة ، وقد يكون الاستاذ ممتازاً وقد

يكون معتدل الحظ من الامتياز ، وقد يكون الكتاب ميسرا وقد يكون معسرا ، ولكن الناس يتعلمون على كل حال لأنهم لا يريدون أن يعيشوا جاهلين ، ومكان وزارة المعارف في مصر كمكان وزارة التموين . فما رأى جحا التركي أن قيل له ان في مصر طعاما يكفي لتغذية نصف المصريين وأن نصفهم الآخر يموت جوعا .

وما رأى جحا التركي ان قيل لوزارة التموين ان في مصر كساء يكفي لنصف المصريين فيجب ان يكتسى نصفهم وأن يظل نصفهم الآخر ضاحيا عاريا . وما رأى وزير التموين أن قيل له مثل هذا الكلام ؟ وما رأى البرلمان أن قال له وزير التموين مثل هذا الكلام . وأى النصفين من المصريين يستطيع أن يأكل وأن يكتسى فيعيش ، وأى النصفين من المصريين يحب ان يجوع ، وأن يعرى فيموت . أما جحا التركي فلن يرى بأسا في أن يأكل القادر على أن يشتري الطعام ، ويكتسى القادر على أن يشتري الثياب ويموت الذين لا يقدرّون على أن يشتروا طعاما ولا ثيابا . وليس على أحد من ذلك بأس فإله قد قسم الحظوظ بين الناس فجعل بعضهم غنيا يستطيع ان يشتري الغذاء والكساء ، وجعل بعضهم معدما لا يستطيع ان يجد غذاء ولا كساء . ولكن وزارة التموين لاتذهب لحسن الحظ هذا المذهب الأثم وإنما تفعل ماتستطيع ليجد الفقراء والأغنياء ما يقيم الأود ويستتر الجسم وهي تغزو الأعداد الضخمة بالقليل من الطعام وتكسو الأعداد الضخمة بالقليل من الثياب توفق أحيانا ويخطئها التوفيق أحيانا أخرى والفرق بين جحا المصري وجحا التركي بسيط جدا فجحا المصري لا يفرق بين العلم والطعام وجحا التركي يرى ان من حق الناس أن يأكلوا ويشربوا ويعيشوا والا بأس عليهم من أن يجهلوا ويخضعوا لأفات الجهل فيمتاز بعضهم من بعض ويتفوق بعضهم بعضا ، ويصبح بعضهم لبعض عبيدا وتبعاء .

وقد نشأ المصريون على ألوان من العقائد يحدثهم بها جحا المصري مصيحا وممسيا . فهو يحدثهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أطعم الأعداد الضخمة من أصحابه حتى أشبعهم بالقليل الضئيل من

الطعام الذى لم يكن يكفى إلا لتغذية الرجلين أو الثلاثة ، وهو يحدثهم بان الله قد أنزل على عيسى مائدة من السماء كانت عيدا لأولهم وآخرهم ، وهو يحدثهم بان فى ألف ليلة وليلة أوزا لا كالأوز ، ودجاجا لا كالدجاج تؤكل الواحدة منها حتى لايبقى إلا عظمها ، قد جرد من كل ما كان عليه من اللحم ثم يجمع هذا العظم فى طبق من الأطباق ويقال له كلام فينتفض بقدرة الله ويعود كهياته قبل ان يؤكل أوزا ودجاجا يستطيع ان يجد فيه الجائع شبعاً ولذة . فمصدر هذا كله ان جحا المصرى يؤمن بالبركة من جهة ويؤمن بالعدل من جهة أخرى ، ويرى من أجل ذلك أن القليل يجب أن يكفى الكثير وأن الناس كلهم لآدم وان آدم من تراب وانهم جميعاً من أجل ذلك سواء فى الحقوق والواجبات يجب ان يأكلوا ويشربوا ويتنفسوا ويتعلموا لايمتاز بعضهم من بعض إلا بالتقوى والأعمال الصالحات التى هى خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً .

فانت ترى فرقاً بين التعليم الذى يعلمه جحا المصرى للمصريين والتعليم الذى يلقيه إليهم جحا التركى من مدرسته تلك فى جمبولاد . وقد اراد الله ان يفهم المصريون لغة المصريين وألا يفهم لغة التركى منهم إلا أفراد قليلون وهم من أجل ذلك لا يشبهون التعليم بأوز جحا التركى ، وانما يشبهونه بهذه المائدة التى انزلها الله من السماء فكانت عيدا للناس أولهم وآخرهم وبهذا الطعام القليل الضئيل الذى أشبع منه النبى صلى الله عليه وسلم مئات من أصحابه ثم تركه كاملاً موفوراً ، وبهذا الأوز الذى تحدثت عنه ألف ليلة وليلة بأنه ينفد ليتجدد ، ويفنى ليبقى ويموت ليحيا .

وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم ووزرائهم وشيوخهم ونوابهم وقادة الراى فيهم أن يؤمنوا مثلهم بهذه الآيات ، والا ييأسوا من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الراى فيهم ان يعرضوا عن هذا الهزل إلى الجد ، وعن الباطل إلى الحق . وان يعلموا المصريين ما وجدوا إلى تعليمهم سبيلاً فى المدارس الواسعة وفى المدارس الضيقة وفى

الهواء الطلق على الكراسى الوثيرة وعلى الكراسى الخشنة وعلى
الحصر وعلى الأرض العراء ، لأنهم يرون الجهل حريقا يلتهم النفوس
والقلوب ، ويجب أن يطفأ مهما تكن الوسائل التى تتخذ لاطفائه .
وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الراى فيهم أن يقولوا
للدولة انفقى وانفقى عن سعة فإن لم تتح لك الميزانية ماتريدينه
فافرضى الضرائب فى غير تردد وفى غير مهل . وعلمى حتى لايبقى فى
مصر جاهل ولاغافل ولا معرض للاستغلال مهما يكن المستغل
والاستغلال مهما يكن المستغل ، والتسلط مهما يكن المتسلطون ، وانه
لمن المؤلم المؤذى حقا ان يحتاج المصريون إلى أن يقولوا هذا
للعلماء والأدباء وقادة الراى .

وقد مرت على المصريين أيام كانوا يساقون فيها إلى المدارس بقوة
السلطان ويدفعون اليها دفعا بالإكراه ويفرون بأبنائهم من التعليم .
فقد انعكست الآية وتغيرت الأيام وأصبح الجاهلون يطلبون العلم
فيردهم عنه العلماء ، فإذا الحوا فى ذلك سيقى إليهم أحاديث الأوز
وقصص عليهم قصص جحا وعبيثه فى جمبولاد كلا أيها السادة ، يجب
أن يخلص العلماء للعلم وأول مراتب الإخلاص له أن ينشروه بكل
وسيلة وان يذيعوه من كل سبيل والا يكونوا كهذا البخيل الذى يقول
فيه بشار :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود



٢١٤١
١٩٤١



قصة

فى مصر ظاهرة غريبة لست ادرى اُتوجد فى
غيرها من البلاد ام لا توجد ؟ واكبر الظن انها
ظاهرة طبيعية فى البلاد التى لم يتم تطورها
بعد ، ولم تتحضر قلوب فريق من ابناءها تحضرا
صحيحا ، وإنما اتخذت من الحضارة غشاء رقيقا
يخفى وراءه جاهلية جهلاء ، وقسوة قاسية
منكرة ، وهذه الظاهرة هى قسوة الذين لهم بالين عهد حديث ، وغلظة
الذين ادركتهم النعمة بعد ان ذاقوا الم الشقاء وبلوا مرارة البؤس
والحرمان ينشأ اُدهم . كما تنشأ الكثرة الضخمة من الشعب
المصرى فى أسرة شقية بائسة أو فى أسرة متوسطة متواضعة ،
فيتكلف أهله ما يتكلفون من الجهد ويحتمل أبواه ما يحتملان من
المشقة والعناء ليرفعاه إلى حال خير من حالهما ولينزلاه منزلة أرقى من
منزلتهما وفيه هو ما فى الكثرة الضخمة من الشعب المصرى من هذا
الذكاء الحاد والعقل الخصب والطموح الى الخير والقدرة على الجد ،
فما يزال الابوان يكدحان ويشقيان وما يزال هو يكد ويجد ، وما يزال
التعاون بين كدح الأسرة وجد الفتى الناشئ يؤتى ثمره قليلا قليلا ،
حتى يبلغ الفتى بعض ما أرادت له الأسرة أو كل ما أرادت له الأسرة
وبعض ما أراد لنفسه أو كل ما أراد لنفسه ، وإن كانت حاجة من عاش
لا تنقضى كما يقول الشاعر القديم . وإذا صاحبنا فتى موفق موفور قد
بلغ من لين الحياة وخفض العيش ما لم تبلغ أسرته ، فعلم وكانت
أسرته جاهلة ونعم وكانت أسرته بائسة ، وابتسم وكانت أسرته
عابسة ، واستقبل الحياة فى رجاء كثير وأمل واسع ، فجعل لايرقى إلى
درجة إلا طمع فى أن يرقى إلى درجة أعلى منها وجعل لايطفر بخير
إلا حرص على أن يبلغ خيرا أكثر منه ، وأصبحت الحياة بالقياس إليه
ميدان سباق الى التفوق لاميدان جهاد لكسب القوات .

هناك يتنكر لماضييه القريب وينسى تلك الدموع التي سكبتها
الأمهات في كثير من مواطن البؤس والشقاء ، وذلك العرق الذي سكبته
في كثير من مواطن الجد والعمل ، وتلك المواقف الحرجة التي وقفتها
الأسرة في كثير من مواطن الأزمة والضيق ، والتي كانت ترده عن
المدرسة لأن الأسرة لم تكن تملك المصروفات وكادت تضطره الى الجهل
والخمول لأن الأسرة لم تكن تجد ما تنفق على نفسها فضلا عن أن تجد
ما تنفق عليه . ولكن الأم نزلت عن آخر ما بقي لها من الحلوى
أو استغنت عن بعض ما في بيتها من المتاع ، ولكن الأب ضاعف الجهد
ووصل الليل بالنهار في العمل وأراق ماء وجهه عند فلان أو فلان
يقترض منه مقدارا ضئيلا أو ضخما من المال ، واستطاعت الأسرة
بفضل هذا الشقاء المتصل والعذاب الأليم أن تحل الأزمة وتخرج من
الحرج ، وتؤدي المصروفات وتقوم له بما يحتاج إليه ليمضي في
درسه وادعا مطمئنا ناعم العين رضى البال . ولعل الأسرة لم تتعرض
لهذا الحرج مرة واحدة ولا مرتين ، وإنما تعرضت له مرات ومرات حتى
اتم الفتى درسه وبلغ ما أرادت له الأسرة وما أراده هو لنفسه .
ينسى هذا كله نسيانا يسيرا سهلا . ينساه بالقياس إلى نفسه
فيحسب انه قد نشأ في النعمة والرخاء ، وان ليس له بالضيق والضيق
عهد . وينساه بالقياس إلى أسرته فيحسب انها لم تقدم إليه شيئا ، لم
تشق ليسعد ، ولم تكد ليستريح بالنعيم . ثم هو ينساه بالقياس إلى
الجيل الناشئ فلا يفكر في ان بين هؤلاء الأطفال والصبية الذين
يبسمون فتبتسم الحياة ، والذين يمرحون فيشيع من حولهم الرضى
والغبطة ، مئات ومئات إنما يشتقون ابتساماتهم هذه الحلوة من عبوس
الآباء والأمهات ، وانما يشتقون ضحكهم هذا المرح من حزن الآباء
والأمهات كما كان هو يشتق ابتسامه ومرحه من عبوس أبويه وحزنتهما
في العهد القديم .

ينسى هذا كله نسيانا ويجعله جهلا وتمحوه الحياة من قبله محوا
قاسيا . فإذا هو يرى الناس كلهم ناعمين كما ينعم ، راضين كما
يرضى ، قادرين على الانفاق كما هو يقدر على الانفاق ، ليس عليهم

إلا ان يريدوا ليظفروا ، وليس عليهم إلا ان يضعوا ايديهم فى جيوبهم ليجدوا ما يحتاج إليه ابناؤهم من هذه النفقات التى تزداد كلما تقدمت الأيام . يرى نفسه موفورا فيحسب الناس كلهم موفورين ويجد نفسه سعيدا فيحسب الناس كلهم سعداء . وهو من هنا قاس اشد القسوة ، عنيف اشد العنف ، ينظر إلى الرحمة على انها خور فى الطبيعة كما كان يراها وزير عربى قديم وينظر إلى العدل على انه قوة فى يد الدولة ترفع بها من تشاء إلى حيث تشاء وتخفض بها من تشاء إلى حيث تشاء .

ثم ينظر إلى الحياة على انها جهاد لا ينال خيرها إلا بالكد والجهد والعناء كما يتصور هو الكد والجهد والعناء . وهو على ذلك صورة عابسة لدولة عابسة لا شرف فيها ولا رضى ، ولا رفق فيها ولا ابتسام ، انما هى القسوة المنكرة والعنف المسلط على الرعوس والنفوس وعلى كل شىء من حوله حتى تستحيل الحياة جحيما أو شيئا يشبه الجحيم .

وانت تستطيع ان تنظر فى حياتنا العامة على اختلاف فروعها فسترى كبارا يقسون على صغار لانهم نسوا انفسهم أو قل نسوا ماضيهم ، ولم يذكروا انهم كانوا صغارا وانهم شقوا بهذه القسوة من كبار الجيل الماضى ، وأن الحق عليهم لانفسهم وللناس ان يمحووا هذا الشقاء ويجنبوا الجيل الناشئ ما شقى به الجيل الماضى ، لا ان يثاروا لانفسهم من الأبرياء ، فكثير من هؤلاء الكبار القساة انما يصطنعون القسوة متأثرين بشعور عميق خفى هو شعور الحاجة إلى التشفى والانتقام لكثرة ماذاقوا من الشدة والجهد حين كانوا صغارا . وشر من هؤلاء قوم قست عليهم الحياة ورفقت بهم الدولة فأعانت أسرهم على تربيتهم وتعليمهم ومكنتهم من ان يتموا الدرس على أحسن وجه ، ويتقلبوا فى المناصب حتى تصير إليهم الأمور ، وإذا هم ينسون فى وقت واحد قسوة الحياة عليهم فيقسون على الناس ، ورفق الدولة بهم فلا يرفقون بأحد . أخذوا لانفسهم ما استطاعوا من لين الحياة . وهم يأخذون لانفسهم وسيأخذون لانفسهم ما يستطيعون من لين الحياة ، ولكنهم لا يعطون شيئا ، لا من ذات ايديهم ولا مما فى يد

الدولة لأنهم انما نعموا بالحياة وينعمون بها من حيث انهم ممتازون قد اشتقوا من عناصر ممتازة ، وهم ليسوا كغيرهم من الناس ولا ينبغي أن يشبه بهم الناس من قريب أو بعيد . وصدق الله العظيم في قوله الكريم ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

كل هذه الخواطر الحزينة الشاحبة التي تملأ النفس بؤسا وحزنا ومرارة ، وإنما تخطر لى فى هذه الأيام حين تنتهى أجازة الصيف ويستقبل الناس العام الدراسى الجديد . من شأن هذه الأيام أن تكون أيام ابتهاج حلو واكتئاب هادىء لامرارة فيه . من شأنها ان تكون أيام ابتهاج لأن الأطفال والصبية والفتيان يستقبلون عامهم الدراسى الجديد الذى سيملأه النشاط الخصب فتتمو عقولهم وأخلاقهم وأجسامهم . ويخطون إلى الرجولة خطوات مباركة ترقبها الأسر سعيدة مبهجة .

ومن شأن هذه الأيام ان تكون أيام اكتئاب هادىء لامرارة فيه لأن الأطفال والصبية والفتيان سيفارقون الأسر الى حيث معاهدهم العلمية فتحزن الأسر شيئاً ولكنه حزن باسم ان صح ان يبتسم الحزن ، ويحزن التلاميذ والطلاب شيئاً ، ولكنه حزن قصير رقيق لا يلبث ان تمحوه حياة الدرس ، ولكن هذه الأيام عندنا ليست أيام ابتهاج باسم واكتئاب هادىء ، وإنما هى أيام الحزن الممض - والشقاء الملح والعذاب الأليم والصراع بين القدرة والعجز وبين الأمل واليأس وبين القوة والضعف ، وهى الأيام التى يجب ان يشقى فيها الآباء والأمهات ليجدوا لابنائهم ماينفقون وليؤدوا عنهم أجور التعليم . وأجور التعليم فى مصر ليست سهلة ولا يسيرة ، وإنما هى أجور ثقيلة عسيرة قد فرضت على أساس ان الأمة غنية أو ان التعليم حق للاغنياء دون غيرهم من الناس . وأين يجد الآباء ما يحتاج إليه أبناؤهم من نفقة يعيشون بها فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الأقاليم : وأين يجد آباء ما يؤدون إلى وزارة المعارف أو الى الجامعة ليتعلم أبناؤهم . يجب إذن ان تنزل

الامهات عما بقى لهن من حلى وعن بعض مافى بيوتهن من متاع ،
ويجب ان يريق الآباء بعض مافى وجوههم من ماء ليقترضوا من هنا
وهناك ما يعينهم على تعليم أبنائهم .

ما أروع نظامنا الاجتماعى فى تقدير الحياة ومن حقها أن تصفو ،
وفى تنغيص العيش ومن حقه أن يكون حلوا رقيقا .

ان الطالب الأوربى ينفق أكثر أيام الطلب لا يكلف اهله شيئا من
نفقات التعليم لأن الدولة تعلمه بلا اجر ، فإذا اتم تعليمه الثانوى
واراد الاتصال بالجامعة فهو فى بعض البلاد لا يكلف اهله شيئا لأن
الدولة تعلمه فى الجامعة بغير اجر ، وهو فى بعض البلاد الأخرى
لا يكلف اهله شيئا يذكر لأن الجامعة تأخذ منه أجرا صوريا . فليعلم
المصريون ان مصروفات التعليم فى كليات الآداب والعلوم فى فرنسا
مثلا لا تزيد على سبعين قرشا مصريا فى العام أى انها لا تبلغ ما يدفعه
الطلاب عندنا رسما للمكتبة والاتحاد . فاما مصروفات التعليم عندنا
فيعرفها الآباء الذين يسعون ويعرفها الأمهات اللائى ينزلن عما لهن من
حلى أو عن بعض مافى بيوتهن من متاع . ويعرفها رجال وزارة المعارف
ورجال الجامعتين الذين تعلمت كثرتهم الكثيرة على حساب الدولة
بالمجانية فى مصر وفى أوربا لأن الدولة كانت محتاجة الى المتعلمين
ثم هم الآن يقاومون المجانية ما وجدوا الى مقاومتها سبيلا ويحتاجون
فى التخلص منها ، يسلكون الى ذلك الطرق الملتوية اذا لم يستطيعوا
ان يسلكوا اليها الطرق المستقيمة . يرفعون نفقات الطعام والكتاب
ويحسبون انهم يحتفظون بالمجانية ويحكم أيها الناس ، ومن أين لغير
الأغنياء باثمان الطعام والكتاب التى تطلبونها . لا تنظروا الى أنفسكم
الآن ولكن انظروا الى أنفسكم حين كنتم صبية وأطفالا وفتيانا

واذكروا كيف كانت أسركم تشقى بدفع المصروفات ، وكيف كانت أسركم
تسعد ان أتاحت لكم المجانية ، واجتهدوا فى أن تجنبوا أسر هذا
الجيل ما احتملت أسركم من شقاء ، واجتهدوا فى أن تتيحوا لاسر هذا
الجيل ما أتيج لاسركم من السعادة حين ظفرتكم بالمجانية . واحذروا أن

تكونوا من الذين قال الله فيهم : «ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون» .
اللهم أشهد أنى مازھبت قط الى الجامعة او الى وزارة المعارف الا كانت هذه القصة ملء قلبى ، والا ذكرت أنى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة ، فمن الحق على أن أتيج بعض هذه السعادة لأکبر عدد ممكن من شباب مصر ولو أستطعت لاتحتها لهم جميعا .
ومن یدرى فما لم نستطعه أمس قد نستطيعه غدا ولا بد من أن يبلغ الكتاب أجله ولا بد لمصر من أن تظفر بحقها من العدل فى يوم من الأيام .





نامت

لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتي لما أنكرت
منظره هذا الغريب ، حين رأيته يقبل متدحرجا
كأنه البرمة الهائلة ، لم ترتفع في الجو كثيرا
ولكنها اتسعت عن يمين وشمال وامتدت من خلف
وأمام وهي تسعى مع ذلك خفيفة لا تكاد الأرض
تحس لها ثقلا لأنها أتخذت من لحم وعظم ، ولم
تتخذ من حجر وصخر لو رأيته قبل عشرين سنة ياسيدتي لما أنكرت
منظره هذا الغريب حين أقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى اذا بلغ مكانه
جلس وكأنه الكثيب المنهال فكان الناظر اليه يسأل نفسه لاول وهلة
أيرى أنسانا جالسا أم يرى كومة من الرمل ، قد أستخفى فيها شخص
ضئيل لا يكاد يظهر منه الا تقاطيع وجهه ضئيلة غائرة خليقة ألا ترى .
لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئيلا نحىلا ، ولولا هذا الشر الذى
يتطاير من عينين صغيرتين لاتفتح عنهما الجفون الا فى بطاء بطيء
وثقل ثقيل كأنما تشد بخيط قد ركب فى قفاه ، وقام شخص من ورائه
يجذبه متكلفا بين حين وحين فلم تكن هذه حاله قبل ٢٠ سنة وإنما كان
فتى نحيفا ضعيفا ونحىلا ضئيلا رشيق الحركة كثير الاضطراب لا
يعرف السعى الهادىء ولا المشى المطمئن ، وإنما كان يجرى على
الأرض أو كان يجرى فوق الأرض ، كأنه شىء من هذه الحيوانات
الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة والتى تريد ان تطير
فى الجو لولا أن الله لم يرزقها جناحين .

ولم تكن هذه حاله اذا أنتقل من حيز الى حيز فحسب . وإنما كانت
هذه حاله أيضا اذا أستقر فى مكان وأقبل على عمل من الأعمال . فقد
كان متحركا دائما مضطربا دائما ، لا تكاد العين تلحظه الا رأت شيئا من
شخصه يتحرك ، فوجهه ملتفت مرة الى يمين ومرة الى شمال . ورأسه

يرتفع حيناً أو ينخفض حيناً آخر ويداه تذهبان وتجيئان ، ورجلاه تداعبان الأرض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر في فمه وإنما هو متحرك دائماً ببعض القول ، ولم يكن شخصه المعنوي أقل حركة واضطراباً من شخصه المادي ، فقد كان عقله مفكراً دائماً ، وكان قلبه متوثباً دائماً ، وكان انطلاق لسانه في فمه مصوراً دائماً لهذا العقل الذي لا ينى في التفكير ، ولهذا القلب الذي لا يغتر عن الشعور وكان على هذا كله ولهذا كله ، ومع هذا كله لا أدري ، متوقد الذهن حاد الذكاء لا تعرض له مسألة من المسائل إلا سبق أترابه إلى تعمقها والنفوذ إلى دقائقها واستخراج ما كان يمكن أن يستخرج منها ، وكان على ذلك أو لذلك أو مع ذلك لا أدري ، مأكراً شديداً المكر عابثاً غالياً . في العبث ، حتى أحبه أترابه أشد الحب وخافوه أعظم الخوف ، أحبوه لذكائه وخفته وخافوه لتفوقه ولحيلته هذه الواسعة وعبثه هذا المتصل ودعابته هذه التي لا تنقضي وكانوا يُسمونه فيما بينهم الثعلب ، وربما بهرهم مكره وتعاضمتهم حيلته الواسعة فسموه الثعلبان . يرون في هذه الصيغة خطأ أو صواباً مبالغة فيما يريدون أن يخلعوا عليه من صفات الثعلب من الخفة والرشاقة ومن المكر والدهاء ولم يكن أترابه من التلاميذ وحدهم هم الذين يعجبون به ويعجبون منه وإنما كان أساتذته كذلك يكبرون ذكاءه ويقدرّون نشاطه ويرضون عن جده في الدرس واجتهاده في التحصيل وأسراعه إلى الإجابة كلما ألقى سؤالاً وتفوقه في الامتحان مهما يكن عسيراً وهم من أجل ذلك كانوا يرفعونه ويتعهدونه بالسؤال عنه والتشجيع له والتتبع لتقدمه في الدرس حتى كأنه كان ابناً لكل واحد منهم . وكان أعجاب رفاقه به ورعاية أساتذته له يشعرانه الرضى عن نفسه والثقة بها ، ويملآن قلبه أملاً حلواً في مستقبل باسم سعيد . وكان مع ذلك من أسرة متواضعة أشد التواضع ، ضيقة الحال أشد الضيق ، تجد الجهد كل الجهد . في كسب القوت فضلاً عما تحتاج إليه من مرافق الحياة . وكان الصبي يرى ذلك ويشقى بآثاره ولكنه لم يكن يحفل به كثيراً لأنه كان راضياً عن نفسه وأثقالها ، مطمئناً إلى أملة الباسم الحلو ومستقبله الرضى

السعيد . وقد أتم الدرس الابتدائي وهم أهله أن يصرفوه عن التعليم ليوجهوه الى بعض العمل لعله يعينهم على بعض ما يلقونه من البؤس ويشقون به من الضيق ولكن الصبي بكى وأغرق في البكاء حتى رقت له أمه ورثى له أبوه . وتكلفت الاسرة ما تكلفت فجد الأب في الكسب وخرجت الأم عما بقى لها من حلية ، وتوسط بعض أساتذته في إعفائه من أجر التعليم فظفر بالمجانبة ، ومرق من التعليم الثانوى كما يمرق السهم من الرمية . لم تعرض له عقبة الاذلها ولا صعوبة الا قهرها ، لم يعرف الرسوب فى الامتحان ، ولم يعرف التخلف عن الاقران ، وإنما كان السابق المتفوق دائما حتى اذا انقضت تلك الاعوام الثلاثة التى كان التلاميذ ينفقونها فى التعليم الثانوى كان الفتى قد جمع شهادتين من شهادات الحكومة كما كان أبوه يقول لأمه اذا خلا اليها . وكما كانت أمه تقول لصاحباتها اذا تحدثت اليهن ..

وكان أبوه حريصا أشد الحرص على أن يضاعف الجد والكد ، وكانت أمه شديدة الحرص على أن تلتمس عملا كريما فى أسرة كريمة ، ليستطيع الفتى أن يمضى فى درسه حتى يظفر بالشهادة الثالثة . وإنما هى أعوام تنفق فى هذه المدرسة او تلك المدارس العليا ليصبح الفتى رجلا متفوقا ممتازا يستطيع أن يطمح الى مناصب المتفوقين الممتازين بين رجال الدولة الذين يحلون ويعقدون وينقضون ويبرمون . ولكن لله فى خلقه حكمة بالغة لا يعرف كنهها ولا تدرك أسرارها ، فلم يكد يتقدم الصيف فى ذلك العام حتى اعتل أبو الفتى أياما ، ثم تقطعت به أسباب الحياة وأسباب الأمل جميعا ففارق هذه الدار ولم ينعم بما كان يتمنى به من ظفر ابنه بالشهادة الثالثة وأشتغاله بخدمة الحكومة فى منصب من هذه المناصب الممتازة التى لا يظفر بها الا المتفوقون الممتازون . ولم ير الفتى بدا من أن يتلمس العمل ليحيا ولتحيا أمه ، وفى الشهادة الثانوية مقنع للشباب الذى يريد عملا متوسطا بل فى الشهادة الابتدائية . مقنع فى ذلك الوقت للصبي الذى يريد عملا متواضعا ، وما هى الا ان يسعى الفتى ، ويعينه بعض أساتذته فى هذا السعى ، واذا هو يظفر بمنصب متوسط فى بعض الدواوين ، وقد ضمن لأمه

ولنفسه الغذاء والكساء كما يقال فى هذه الأيام ، ولكن الفتى حاول
يحسن مقارعة الدهر لا يسد عليه مسلك من مسالك الحياة الا فتح له
مسلك آخر من مسالكها كما يقول الشاعر القديم . والتعليم فى ذلك
الوقت ميسر أكثر مما هو فى هذه الأيام لقلة المتعلمين وشدة الحاجة
اليهم . فما يمنع صاحبنا أن يختلف الى الديوان وجه النهار والى
مدرسة المعلمين آخره . وقد فعل . وما هى الا أعوام حتى يبشر أمه
انه قد نال الشهادة الثالثة . واذا عمله يتغير وأجره يرتفع واذا هو
لايقنع لأمه ونفسه بالغذاء والكساء وإنما يضيف اليهما شيئاً من
طيبات الحياة ، وقد جعل رضى الفتى عن نفسه يشتد ، وجعلت ثقة
الفتى بنفسه تزداد ، وجعل الأمل يهدى اليه ابتسامات فيها شيء من
سعة ، وجعل المستقبل يدعو به باشارت فيها شيء من الحاح . وقد سأل
الفتى نفسه ما الذى يمنعه من أن يختلف الى عمله وجه النهار والى
مدرسة الحقوق آخره ، وما الذى يرغبه عن ذلك وليس له أرب فى هذه
الحياة الفارغة التى يحيها أترابه من الشبان اذا تقدم النهار . وقد
فعل ، وما هى الا أعوام حتى يقبل الفتى سعيداً محبوراً فينبئ أمه
بأنه قد ظفر بالشهادة الرابعة . والشيخة راضية لأن ابنها يرقى
ويرقى ، ويكسب الشهادات لنفسه تكديساً ، والشيخة محزونة لان
زوجها لا يشاركها فى هذا الرضى ولا يشاطرها هذا النعيم . والفتى
مقبل على أيامه ينتهبها انتهاياً وقد زاد رضاه عن نفسه وثقته بها ، وقد
زاد ابتسام الأمل له سعة واشتد دعاء المستقبل عليه الحاحاً ، وهو
يسأل نفسه لم لا يظفر بشهادة خامسة . وبشر أمه ذات يوم بأنه قد ظفر
بهذه الشهادة الخامسة ولكنه أنبأها فى الوقت نفسه بنبا مزق قلبها
تمزيقاً وأجرى دموعها على خديها غزيراً . فقد عرفت له الدولة نبوغه
وقدرة تفوقه ، ورات أن الشهادة السادسة يجب أن تضاف الى
الشهادات الخمس وأن هذه الشهادة السادسة لا تطلب فى مصر ، وإنما
هى بعيدة ، بعيدة ، يعبر لها البحر ، وتطلب من بلاد الانجليز . ولم
يكن الفتى أقل من الدولة اعترافاً بنبوغه ولا أقراراً بحقه فى الظفر
بالشهادة السادسة ، والعلم يطلب ولو فى الصين ، والشهادات تطلب

ولو في بلاد الانجليز . ولا يتقدم الصيف حتى يكون الثعلب قد هيا نفسه للرحلة البعيدة ، والغياب الطويل وقد غاب ما غاب ، ثم آب ومعه الشهادة السادسة والشهادة السابعة وإذا هو رجل مرموق مرموق ، لا يذكر الا أكبره ذاكروه ، ولا يرى إلا أشير اليه بالبنان . هذا فلان اترى الى فلان ، أنه ذو الشهادات السبع وقد أكبرته الدولة ، وعرفت له حقه وحق شهاداته هذه الكثيرة التي يمكن أن تبسط على جدار من جدران مكتبه فتكسوه كله بهذا الورق الجميل يملأه الثناء الجميل . وقد رضى الفتى عن نفسه كل الرضى ، ووثق بها كل الثقة ، ولكنه زهد في الشهادات كل الزهد وأدركه شيء يشبه التخمة ، فاتجه نشاطه اتجاهها آخر ملائما كل الملاءمة لطبيعة الحياة المصرية في ذلك الوقت .

فقد كانت الثورة المصرية قد غيرت أشياء كثيرة من أمور الناس ، ومن أمور الحكم ، ومن أمور المستقبل الذي يطمع فيه الشباب . نشأ نظام الاحزاب ونشأ الصراع بين هذه الاحزاب .

ونشأت الفرص الكثيرة التي ينتهزها الأذكيا ل يستفيدوا من صراع الاحزاب . ونظر الثعلب ذات يوم فإذا الحياة المصرية كلها تلقى في نفسه انه قد خلق للفوز وان الفوز قد خلق له ، لان الحياة المصرية لم تكن في وقت من الأوقات ملائمة لخفة الثعالب ورشاققتها وذكائها ونهمها منها في هذه الأيام . وما ينبغي لمن يريد الفوز في هذه العواصف العاصفة وفي هذه المصالح المشتبكة والخصومات المتصلة والمنافع المعقدة الا ان يكون فطنا ، وصاحبنا شديد الفطنة ، لبقا ، وصاحبنا عظيم الحظ من اللباقة ، خفيفا ، وصاحبنا أخف من النسيم ، مأكرا ، وصاحبنا أمكر من المرأة صامتا ، وصاحبنا أشد صمتا من الصخرة الصماء . وقد ينبغي أن يضيف المرء الى هذه الخصال ليبلغ ما يجب من الفوز ، خصلة أخرى تشتق من هذه الخصال جميعا ، فيتلطف حتى يشعر الاحزاب جميعا بأنها جميعا محتاجة اليه ، وحتى يشعر المرافق العامة جميعا بأنها كلها تستطيع أن تنتفع به ، وحتى يشعر الساسة جميعا بأنه رجل فن لا رجل سياسة . وقد أستطاع صاحبنا أن يبلغ من هذه الخصال كلها ما أراد .

فقد كان ثعلبا في المدرسة الابتدائية وكان ثعلبا في المدرسة الثانوية وكان ثعلبا في الدواوين التي اختلف اليها وجه النهار وفي المدارس التي اختلف اليها آخره . وكان ثعلبا في بلاد الانجليز وعاد منها اشد اغراقا في خصال الثعلب . ومكنته شهاداته السبع من ان يتثعلب في فروع مختلفة من فروع العلم والمعرفة . واذا الاحزاب كلها عنه راضية وبه معجبة واليه محتاجة ولكنه فقد من خصال الثعلب خصلة واحدة هي التي حملتك ياسيديتي على ان تضحكى منه حين رأيته يقبل كأنه البرمة الضخمة وحين رأيته يجلس فينهال كما ينهال الكتيب .

ذلك ان الايام احبته حبا شديدا ، فاخذت لا يمر به يوم منها الا خلع عليه قميصا من الشحم قد فصل على قده تفصيلا وجعلت هذه الثياب الشحمية تتراكم وتتراكب حتى مدته الى يمين والى شمال ، وزادته بسطة في الجسم من خلف ومن أمام ، وجعلته كما ترين جبلا يتحرك في خفة ويعمل في ذكاء .

قالت السيدة وكانت اديبة اريبة ، ارجو ان لا يكون ثعلبك هذا الغليظ من ثعالب المتنبي التي يقول فيها :
نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمنا وما تفنى العناقيد





شباطين البيبان

صدقنى ياسيدى أو لاتصدقنى لن يغنى هذا عن
الحق شيئاً ، والحق الواقع ، وهو أن هذه القصة
ليست مخترعة ولا مصطنعة وليس للخيال فيها
أثر قليل أو كثير ، وإنما هى شىء وقع ، كما أن
من الأشياء الواقعة أنى قد خرجت من دارى حين
ارتفع الضحى فسعيت إليك متثاقلاً استمتع بهذا
الجو الرائق ، وبهذه الشمس الفاترة ، وبهذا النسيم البارد الرقراق ،
وإدير فى نفسى ماوقع لى من الأمر ، واستعرض بعض الصور التى
أريد أن اصطنعها لأقصه عليك . وأجىل فى نفسى أيضاً ما سيكون بينك
وبينى من أخذ ورد مستنكراً على حديثى وسأحاول اقناعك بأنه صحيح
وسيشهد بينك وبينى خصام لا بد من أن يثور بيننا كلما حدثتك ببعض
الأمر . لأنك رجل لا تؤمن إلا بما ترى وتحس . ولا تصدق من أنباء
الناس إلا قليلاً .

ولست أخفى عليك أنى أعذرك ولا ألومك فقصتلى لا تخلو من غرابة ،
وأية ذلك أنى أنا نفسى انكرتها أشد الانكار وكنت واثقاً كل الثقة بأنى
رأيتها فيما يرى النائم ، وكنت اتحدث إلى نفسى بأنها حلم غريب ،
طريف ، وكنت التمس العلة لهذا الحلم وكنت أجدها فى غير شقة ،
وكنت أستمتع بحلمى واستمتع بما بذلت فى تعليله من جهد واستمتع
كذلك بما سأتحمل فى تأويله من عناء . ولكن رأيتنى حين تقدم الليل
وكاد ينهزم أمام النهار واقفاً أمام دارى التمس المفتاح لأديره فيفتح لى
الباب وانسل الى غرفتى فى هدوء وخفة حتى لا يحس أهلى عودتى فى
آخر الليل ، فلا أجد المفتاح ، وقد تعودت ألا أخرج مع الليل إلا أخذت
معى هذا المفتاح أوفر بذلك على أهلى حريتهم وراحتهم ونومهم ،
واجنبهم بذلك أن يسهروا منتظرين عودتى أو أن يهبوا من نومهم حين
أعود ليفتحوا لى الباب ولكن المقادير أرادت أمس أن تجرى الأمور على
غير ما تعودت أن تجرى عليه فأنسيت المفتاح وما إنسانيه
إلا الشيطان ، وسترى أن هذا لم يكن غريباً ، فقد كانت المقادير قد

قدرت ان تكون ليلتى هذه من قسمة الشياطين . والشئ الذى ليس فيه شك هو انى التمسست المفتاح حيث تعودت ان أحفظه فلم أجده فجعلت افتش فى جيوبى كلها وما أكثرها فلم أجده وقد ضقت بذلك أشد الضيق ، حسبت اول الأمر انى قد أضعته ثم لم ألبث ان ذكرت انى خرجت مسرعا مع بعض الأصدقاء وأعجلنى الحديث فلم أت هذه الحركة اليسيرة التى انتزع بها المفتاح من مكانه وأضعه فى الجيب الذى تعودت أن أضعه فيه .

فلما تبينت ذلك غشيتنى من الهم ما غشيتنى ووقفت واجما اول الأمر مترددا بعد ذلك . أطرقت الباب فأزعج من فى الدار ، أم أقوم مكانى حتى يسفر الصبح ويهب النوام ، أم أعود إدراجى فاطوف فى شوارع الحى أتلهى بهذا التطواف عن الانتظار ، وقد طال على هذا التردد فتحولت عن مكانى ولكنى لم أخرج من الحديقة وانما جعلت أطوف حول الدار وأردد فى نفسى قول الشاعر القديم :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بابياتكم مادرت حيث أدور
ولم أكن أدور لأرى أم جعفر وانما كنت أدور مخافة ان أوقظ أم جعفر
او أزعجها فيكون شر فى هذه الدار التى لم تعرف الشر إلا قليلا .
ولست أحدثك بما كان حين انجلى الصبح واشرقت الشمس وفتحت
الأبواب واندفعت إلى غرفتى واسرعت إلى مضجعى والتمست الراحة
فلم أظفر منها بشئ ثم نهضت مكدودا مجدودا وأقبلت اسعى إليك ولم
أذق للنوم طعما فى هذه الليلة الطويلة القصيرة التى امتلأت من الأمر
بأشده غرابة وأعظمه سخفا ولولا قصة المفتاح هذه ، لما شككت فى
انى رأيت حلما من هذه الأحلام الكثيرة التى تعبت بنفوس الناس حين
يجن عليهم الليل ، ولكنك ترى انى مستيقظ منذ أشرق الصباح أمس .
ولعلك تذكر وما أظنك نسيت اننا قد قضينا شطرا من الليل عند صديقنا
فلان نسمر حول أحاديث الجن والشياطين وما تزعم العرب من الصلة
التي تكون بينهم وبين الشعراء والخطباء والكتاب والذين يتعرضون
ألوان البيان . وقد قال قائل منا أن العرب فى جاهليتهم واسلامهم لم
يتحدثوا بما يكون بين الشياطين والخطباء والكتاب من صلوات وانما

زعموا ان الشياطين قد وكلوا بالشعراء خاصة حتى إذا كان ابن شهيد في الأندلس زعم لنا في قصته المشهورة التوابع والزوابع ان للخطباء والكتاب شياطين كما أن للشعراء شياطين . وقد قص علينا في رسالته تلك زيارته لوادى الجن وما كان من حوار بينه وبين خطباء الجن وكتابهم أولئك الذين كانوا يلهمون خطباء الإنس وكتابهم ، وسمى لنا شيطان عبد الحميد الكاتب وشياطين غيره من أعلام البيان ، وسمى لنا شياطين جماعة من خصومه ومنافسيه في الفن ، وزعم لنا أنه خصمهم فخصمهم وناظرهم فتفوق عليهم . وقد أخذت بحظي من هذا السمر كما أخذتم بحظوظكم منه فلما تفرقنا بقيت في نفسي هذه الأبيات التي ألقاها زهير بن نمير . ذلك الدليل الجنى لابن شهيد في زيارته المتصلة لتلك الأندية التي كان يجتمع فيها شياطين البيان ولعلك تذكر ان زهير ألقى أبياته هذه إلى صاحبه ابن شهيد وجعلها آية بينه وبينه . فكلما احتاج ابن شهيد إلى صاحبه أنشد هذه الأبيات فيسرع إليه زهير ويجيبه من الأمر إلى ما يريد .

وقد جعلت أردد هذه الأبيات في نفسي وأنا أمضي متباطئا إلى الدار ثم لست أدري لماذا لم اكتف بإدارة هذه الأبيات في نفسي وإنما جعلت أنشدها في صوت خافت لا يكاد يسمعه غيري .

وإلى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذكريات أتاهها إذا جرت الأفواه يوما بذكرها يخيل لي أني أقبل فاهها فاعشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من داري هوى لهواها ولكني لم أكد أفرغ من انشاد البيت الثالث حتى أحسست الرعدة تأخذني أخذا عنيفا كدت أهوى له إلى الأرض لولا أني تماسكت ، ولولا ان ذراعا قوية عصمتني من السقوط . فقد سمعت صوتا غريبا نحىلا يأخذني من جميع أقطاري وهو يقول لبيك لبيك هاأنذا زهير بن نمير خليل شاعرك الأندلسي ابن شهيد في الزمان الأول والدهر القديم . ولست أخفى عليك اني قد انكرت من هذا الأمر مثل ما تنكر ولم ترتسم على وجهي هذه الابتسامة الساخرة التي ترتسم على وجهك الآن ، وإنما تقبض وجهي تقبضا شديدا وجعل العرق البارد يبيل جبهي ، وهم لساني ان يدور في فمي صائحا مستغيثا ولكني اسمع الصوت

النحيل يسعى إلى وكلما دنا منى زال عنه نحوله وجعل يمتلىء شيئاً فشيئاً وجرت فيه نغمات عذبة وهو يقول : لا بأس عليك لا ترع وائل معى قول الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقد تلا هذه الآية من قبلك جماعة من أمثالك العرب حين روعوا بمثل ماتروع به الآن من لقاء أصدقائهم من الجن .

وقد سمعنى أتلو هذه الآية الكريمة مع صاحبى ثم رأيتنى أثوب إلى نفسى أو رأيت نفسى تتوب إلى وإذا قلبى آمن كله وإذا أنا هادىء هدوءاً لا أكاد أعرفه من نفسى حين يفجئها مالا تنتظر وإذا أنا أسعى مع صاحبى كما تعودت أن أسعى معك فى غير وحشة ولا تكلف كأنما كان بينى وبينه وذ قديم قد بعد به العهد وطال عليه الزمان . ويجب ان اعترف لك بأنى أحسست فى ذلك الوقت ان لى شخصين مختلفين أحدهما يساير صاحبى فيسمع منه ويتحدث إليه والآخر عاكف على نفسه فى ناحية من نواحي الضمير يرقب ويسمع ويرى ويحاول التحليل والتعليل ويزعم لى أن ما أنا فيه إنما هو لون من ألوان الحلم لأعرض من أعراض اليقظة ولكنى شغلت عن هذا الشخص الذى انتبذ ناحية من نواحي الضمير بهذا الرفيق الذى جعل يتحدث إلى بالأعاجيب . فقد كان يقول لى : صدقنى ان هذا العلم الذى أخذه قدامؤكم عن اليونان وأخذه محدثوكم عن الأوربيين قد أفسد عليكم شيئاً كثيراً وأشاع فى نفوسكم فنا من الكبرياء والغرور حرمكم متاعاً لا حد له . فأنتم تنكرون ما كان يعرفه قدامؤكم من معاشرة الجن ومخالفة شياطين الفن فإذا تحدث إليكم أبو العلاء بشيء من ذلك فى رسالة الغفران أو إذا تحدث إليكم ابن شهيد بشيء من ذلك فى رسالة التوابع والزوابع لم تصدقوه ولم تطمئنوا إليه وإنما استمتعتم به فى شيء من السخرية والتكذيب على انه من آثار الخيال وفن من فنون الصنعة وما أبعد الفرق بين من يستمتع بالخيال المخترع ومن يستمتع بالحق الواقع الذى لاشك فيه . وأنكم تنكرون المصادقة وتردون كل شيء إلى ما تسمونه الأصول والقوانين فردوا الأشياء إلى ما تريدون ولكن اعترف بأن المصادقة وحدها هى التى انطقتك بهذه الأبيات ، فإذا أنا استجيب لك مسرعاً لأجدد معك ذلك العهد القديم الذى كان بينى وبين ابن شهيد شاعر الاندلس وخطيبها وكاتبها . وانت من غير شك حريص كما حرص ابن شهيد على ان تفر من حياة الناس لحظات طوال

او قصارا دون ان تقطع الصلة بينك وبينهم وانما تراهم فى شياطينهم
او ترى شياطينهم وهم يزينون ما سيملاون به قلوبهم ويحركون به
السنتهم ويجرون به أقلامهم من الوان القول .

وقد زرت ابن شهيد على ظهر جواد أصيل ، أما انت فقد ظهرت لك
فجأة لم تدر انجمت لك من الأرض أم هبطت عليك من السماء وما أظنك
تفكر من ذلك شيئا . فانتم لاتتخذون الخيل الان أداة للانتقال وانما
تنقلون فى سياراتكم وطياراتكم وقطاراتكم هذه التى تخيلون إلى
انفسكم انكم قد احدثتم بها المعجزات وابتكرتم بها الاعاجيب ، وأظنك
توافقنى على اننا معشر الجن أقدر منكم على اختراع الطرائف وابتكار
الاعاجيب واين تقع طرائفكم واعاجيبكم مما كنا نأتى به من الطرائف
والاعاجيب فى عهد سليمان عليه السلام . وإذا كنتم قد بلغت ما بلغت
من المهارة والبراعة فى عشرين قرنا فاحرى ان نبلغ نحن من المهارة
والبراعة فى هذا الأمد الطويل بالقياس اليكم ، القصير بالقياس اليها
مالا يخطر لكم على بال .

وما أريد ان أشق عليك ولا ان اكلفك من الأمر مالا تحب وانما أريد
ان أزور معك ناديا من انديتنا هذه التى يجتمع فيها شياطين البيان وان
أظهرك عليهم حين يخلو بعضهم إلى بعض وقد فارقوا قرناءهم من كتاب
الإنس حين تقدم الليل واوى كتاب الإنس إلى مضاجعهم وأقبل
شياطينهم إلى ناديتهم يجدون حيناً ويعبتون فى أكثر الأحيان . وهممت
ان ارد على صاحبى رجع حديثه ولكنى ارانى فى قصر فخم ضخم
لا ادرى انقلت انا إليه أم نقل هو إلى ولكنى أجد نفسى فيه دون أن
اتكلف لذلك سعيًا أو حركة واسمع صاحبى زهيرا يقول متضاحكا : قد
يخيل إليك ان هذا النادى فى ضاحية من ضواحي القاهرة كهذه الأندية
التي تنبث حول مدينتكم هذه الصغيرة ولكن لاتجزع نفسك فإن بينك
وبين القاهرة أمادا لاتقطعها السيارات ولا الطيارات ولا القطارات ،
ولولا أنى رفيق بك وفى لك لاظهرتك على بعض ما بينك وبين القاهرة
من أمد . ولكن أخشى ان أروعك ، فأعد معى تلاوة الآية الكريمة
« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب »
وانا اتلو معه الآية الكريمة واجد الطمأنينة والأمن وأهم ان اتحدث
إلى صاحبى ولكنه يبتدرنى بالحديث فيقول .

تعلم ان هذا النادى الذى أنت فيه مقصور على شياطين البيان الذين

يلوذون بأدبائكم انتم المصريين دون غيرهم من الادباء . فلن ترى في هذا القصر إلا قريتنا لكاتب أو شاعر أو خطيب من هؤلاء الذين يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبياناً . فأى شيطان من هؤلاء يملأون الجو في بلدكم فصاحة وبلاغة وبياناً . فأى شيطان من هؤلاء الشياطين تحب أن ترى ولا يهم تحب أن تسمع ومع أيهم تحب أن تأخذ في الحديث ! قلت لا أدري فأتى أعرف كتابنا وشعراءنا وخطباءنا لكثرة ما أقرأ واسمع من آثارهم ولو خيرتني لاقتحمت عليك أن تزور معي ناديا من اندية الشياطين الذين يوحون إلى جيل آخر من أجيال الأدباء . قال زهير سبحانه الله ما زلت بعد غارقاً فيما يغرق أمثالك فيه من الوهم . انك لاتعرف كاتباً ولا شاعراً ولا خطيباً حق المعرفة حتى ترى شيطانه وتسمع منه ، لأن ما يلقي إليكم من آثار الأدباء ليس إلا صدى ضئيلاً لهذا الصوت الخصب الذي ينفث في القلوب ويطلق الألسنة ويجرى الأقلام وسترى بعد لحظات انك لاتعرف من أمر أدبائكم إلا أيسره واهونه شأننا فامض معي .

ولم نكد نخطو خطوات حتى دفعنا الى بهو رحب بعيد الأرجاء تضطرب فيه ظلال غريبة ضئيلة وهي تتصايح وتتصاخب ويكاد بعضها يمزق بعضها لو أن الظلال يمكن ان تتمزق أو يدركها البلى . وقد انفرد من بين هذه الظلال شخص غريب مرتفع في السماء ممتد في الفضاء كثير حركات الوجه كثير اضطراب الأعضاء لا يستقر في مكان ولا يستقر لسانه في فمه ولا تكاد أعضاؤه تستقر في مواضعها من جسمه ، وإنما هو حركة متصلة وصياح لا ينقطع ، وقد حرص على ان لا يدنو من الظلال الأخرى التي تضطرب في البهو فتملأه دويًا كدوي النحل ، وإنما هو ممتاز منها دائماً لا تكاد تدنو منه إلا نأى عنها ولا تكاد تسعى إليه إلا ارتد في أنفة وكبرياء ، وتجافى في غلظة منكرة . قلت لصاحبي : زهير ما هذه الظلال ؟ قال ضاحكاً : هي جماعة من الشياطين لم تأخذ من الفن بحظ ، ولكنها خدعت عن أنفسها وملأها الغرور فقامت في هذا البهو مضطربة صاحبة تريد ان تقنحم على شياطين الفن ناديمهم فلا تبلغ من ذلك شيئاً لأنها ترد عن نادى الفن رداً عنيفاً : وليس اضطرابها هذا الذي ترى ، وليس عجيجها هذا الذي تسمع إلا مظهرها من مظاهر الغيظ وفنا من فنون الحق وضرباً من ضروب الإلحاح في قرع الأبواب لعلها ان تفتح لها . قلت ، وما هذا

الشخص الذى يمتاز من هذه الظلال قىأبى أن يدنو منها أو أن يخلط نفسه بها ولا يؤذن له مع ذلك فى أن يتجاوز هذا البهو ، فهو يتحرك وكأنه ساكن ، ويسعى وكأنه واقف ، وينطق وكأنه صامت ، ويصخب وكأنه لايقول شيئاً . قال : هذا مسيلمة الشياطين ، أراد أن يكون شيطاناً من شياطين الفن فلم يستطع إلا أن يكون ثرثاراً مكثاراً مهزاراً لاحظ لقلبه من غناء ولا حظ لعقله من علم ولا حظ لضميره من حكمة ، وانما اتيح له حظ من قدرة على الاضطراب والصخب لم يتح لغيره من هذه الظلال فهو ينأى عنها ولا يستطيع أن يقطع ما بينه وبينها من الأسباب ، وليس من شك فى انه يمتاز منها بعض الامتياز . ولكن ليس من شك فى ان ما يراه لنفسه فنا وما يحاول ان يلقيه إلى بعض من يتكثرون عندكم بالقول لا يعدو ان يكون كما يروى من قول مسيلمة الانس : يا ضفدع بنت ضفدع ، نقى ماتنقين اعلاك فى الماء واسفلك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين .

وهممت ان اتعجل صاحبى زيارة شياطين البيان ولكن أرانى فى مكانى ذاك من الطريق الى دارى واسمع صاحبى زهيراً يقول لى فى صوته التحيل الذى جعل ينأى عنى شيئاً فشيئاً . حسبك من ليلتك هذه ما رايت فإن راقتك صحبتى ، وشاقتك زيارة شياطين البيان فانشد ما كان ينشد شاعر الاندلس وكاتبها وخطيبها ابن شهيد :

والى زهير الحب ياعز انه إذا ذكرته الذاكرات أتأها
إذا جرت الأفواه يوماً بذكرها يخيل لى أنى أقبل فأها
وأغشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من دارى هوى لهواها
ثم أطرق صاحبى لحظة ورفع إلى رأسه وهو يقول فى صوت هادىء منكسر : صدقنى ياسيدى أو لاتصدقنى فإن ذلك لا يغنى عن الحق شيئاً . والحق الواقع الذى لاشك فيه هو انى قد رايت وسمعت كل ما أحدثك به الآن .

قلت متضحكا فلا تنشد هذا الشعر مرة أخرى وأنا معك فانى لست فى حاجة إلى أن أرى شيطانك الاندلسى . قال وهو يضحك ضحكا فيه كثير من السخرية ، لابس عليك فقد أنسيت ان أنبئك بأنه زعم لى انه لن يستجيب لانشاد هذا الشعر إلا إذا كان هذا الانشاد بعد ان يتقدم الليل .



الطفلة

لا تقولى انه رد إلى الطفولة بعد أن قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ولم يكد يخطو في مرحلة الشيخوخة إلا خطى قصارا ، ولكن قولى ياسيدتى انه لم يخرج قط من طور الطفولة ولم يكد يعرف من الأطوار الأخرى التى يعرفها الناس والتى ذكرتها أنفا شيئا ما . فانك ان قلت ذلك كان قولك أدنى إلى الحق وكان رأيك أدنى إلى الصواب ، واضحكى ما شئت أن تضحكى فلست أكره لك الجذل والابتهاج ، ولكن الإنكار برفع الرأس وهز الكتفين لا يغير من الحق شيئا ، كما أن الاغراق فى الضحك حتى تنهل الدموع من عينيك الجميلتين على خديك الاسيلين لن يحول الخطأ إلى صواب .

فانت مخطئة يا سيدتى حين تظنين انه رد إلى الطفولة قبل أن يبلغ الستين أو قبل أن يبلغ أرذل العمر ، وصاحبنا بعيد كل البعد عن أرذل العمر . فالذين يغلون فى تقدير سنه يقولون انه قد قارب الستين ، والذين يقتصدون فى ذلك يقولون انه لم يكد يتجاوز نصف القرن . اما هو فيخفى سنه ولعله لا يعرف من أمرها شيئا فقليل من الأطفال ، ومن أطفالنا المصريين خاصة ، من يعرفون أسنانهم ..

وأنا اعلم أن الجيل الجديد قد أخذ يقلد أجيال الغرب فى الاحتفال بأعياد الميلاد . وأخذ الأطفال والصبية يعرفون أسنانهم فى هذه الأيام بحكم هذا التقليد . ولكن صاحبنا ليس من صبية الجيل الجديد ، وإنما هو من صبية جيل آخر قد مضى ولم يكن الناس يعرفون فيه إلا مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) وموالد الأولياء والصالحين ، وميلاد الخديو السابق . فأما عامة الناس فكانوا يجهلون الأيام التى ولدوا فيها فضلا عن أن يذكروها ذكرا منظما وأن يحتفلوا بها فى كل عام .

وصاحبنا لم يولد فى القاهرة ولا فى الاسكندرية ولا فى مدينة من هذه المدن التى يشتد فيها الاتصال بالأوربيين ، ويسهل فيها تبادل السنن والعادات . بل هو لم يولد فى مدينة من مدن الأقاليم التى كان يكثر فيها اليونان الذين يشتغلون بالتجارة ويلم بها الموظفون من الانجليز أيام كان الموظفون من الانجليز يطوفون فى المدن ليتعهدوا شئون الإدارة والرى والتعليم وإنما ولد صاحبنا فى قرية صغيرة يسيرة من قرى الريف ، لا يكاد سكانها يتجاوزون بضع عشرة مئة ولا تكاد هى تمتاز عن أمثالها من قرى الريف المصرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كان الحديث عن القاهرة والاسكندرية يملأ النفوس روعة وإعجابا كأنه الحديث عن الأساطير ، وحين كانت المدن فى الأقاليم لا تبلغ إلا على ظهور الابل أو على ظهور الحمير ، وحين كان الناس فى القرى لا يحفلون بتسجيل ابنائهم وبناتهم ، حين يولدون وإنما كانوا يتركون ذلك للداية تبلغه أو لا تبلغه إلى الحكومة تذكره مرة وتنساه مرة أخرى ، تهتم له مرة وتعرض عنه مرة أخرى . فليس غريبا أن يجهل صاحبنا سنه وليس غريبا أن يجهل الناس معه هذه السن .

وانت تنكرين أن يجتمع على الرجل الواحد هذان الشيئان المتناقضان ، فيكون له جسم الشيخ وتكون له كل الخصائص الظاهرة التى يمتاز بها الشيوخ ، ثم يكون مع ذلك طفلا لم يمر بأطوار الصبا والشباب والكهولة . وهذا غريب من غير شك ، ولكن من الذى قال ان الغرائب لا توجد فى هذه الحياة ، ومن الذى يستطيع أن يتكر أن من الناس من تنمو أجسامهم نموا مطردا مألوفا وتختلف عليها الأطوار المعروفة التى يمر الناس بها فى حياتهم ولكن نفوسهم تبقى مع ذلك محتفظة بطورها الأول قد انتهت إلى حد من النمو لم تستطع أن تتجاوزه إلى غيره من الأطوار .

وليس من شك فى أن جسم صاحبنا قد نما وتطور كما ترين فعليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الأخرى التى تمتد حول أنفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان اللتان لا تنفرج عنهما الجفون إلا فى شىء

من الجهد ، حتى يخيّل إلى من يراه وقد أغمض جفنيه وتحدث أو تحرك انه إنسان يحيا من وراء ستار ، وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان لا تجتمعان إلا في شيء من العناء ، سواء تكلم صاحبنا أو لبث صامتا ، وهذا التهدل والترهل في وجهه الضخم وجسمه الذي يريد الشحم أن يكسوه فلا يستطيع ، وهذه الحركات البطيئة المتكسرة والمتعسرة التي تخيل إلى من يراها انها تصدر عن مجموعة عصبية قد شملها الفتور وأخذ يشيع فيها الفناء وهذا الصوت المحطم الذي لا يكاد السامع يسمعه حتى يستحضر إناء من الزجاج وإناء من الفخار قد أصابه شق يسير فهو لا يرسل الصوت إذا مس إلا حدثنا بهذا الانحطام ، وهذا التنفس السريع الذي يتبع بعضه بعضا في غير اناة ، كانه تنفس المكدود المجهود والذي يسمعه القريب من مصدره والبعيد عنه كانه يخرج من أنف قد كثرت فيه الأعشاب فهو لا ينفذ من بينها إلا نفوذا عسيرا .

كل هذه مظاهر تدل على أن صاحبنا قد كان طفلا وصبييا وقد كان شابا وكهلا ، وهو الآن شيخ يخضع لما يخضع له الشيوخ من أعراض الضعف والفناء ولكن التحدث إليه والاستماع منه والأخذ معه في فنون الحوار كل ذلك يصور لنا صبييا كسلا لم يتجاوز طور الصبا . فهذا هو الذي قد خيل إليك ياسيدتي انه رد إلى الطفولة قبل الأوان ، ومصدر هذا أنك لم تعرفيه إلا منذ وقت قصير . فأما أنا فقد عرفته منذ أعوام طوال لا أعدها لك لأنى لست في حاجة إلى أن تعرفى عددها . ولكنى عرفته حين كنت شابا وحين كان جسمه في طور الشباب . ثم عرفته حين تقدمت بنا السن وحين اختلفت علينا ظروف الحياة وتجاربها وحين عرضت لنا المشكلات والخطوب ، وأنا أراه الآن فلا أنكر منه شيئا ، لأنى عرفته دائما في هذه الحال التي ترينها ولأنى ضحكت منه دائما مع اترابنا كما تضحكين أنت منه الآن ، ولأنى قلت فيه دائما لاترابنا وسمعت فيه دائما من اترابنا هذه الجملة : مازال فلان طفلا ويظهر انه سيظهر طفلا مهما تقدمت به السن ومهما تخطف عليه أطوار الحياة .

وربما كان من الحق علينا أن نسجل الواقع فصاحبنا قد نشأ كما نشأ
أترابه واختلف إلى الكتاب وأوجعت فيه عصا سيدنا أحيانا واختلف
إلى المدارس المدنية وبلى فيها من حياة التلاميذ والطلاب حلوها
ومررها فآخفق حيناً ونجح أحيانا حتى أتم الدرس العالى كما أتمه كثير
من أترابه . ثم عبر البحر إلى أوروبا فدرس فى بعض أقطارها أعواما ،
ثم عاد إلى قريته فائزا مظفرا وسعيدا موفورا وكل هذا من غير شك
لايدل على طفولة ولا يدل على أن نمو قواه العقلية قد كان محدودا .
ولكن الغريب أنه إلى جانب هذا النمو المطرد قد احتفظ بشيء من
خصال الاطفال لم يفارقه فى لحظة من لحظات حياته ، ولم يستطع
أترابه الذين رافقوه فى المدارس المصرية وفى الجامعات الأوروبية
وفى الحياة العملية بعد ذلك أن يجهلوه أو يتجاهلوه . فقد كان دائما
سريع التأثر جدا بما يسر وسريع التأثر جدا بما يسوء . وكان دائما
يتنقل من الرضى إلى السخط ومن السخط إلى الرضى فى غير تمهل
ولا أناة ولا شيء يشبه الروية أو التفكير ، وإنما كان أيسر الأشياء
يدفعه إلى الرضى فإذا هو فرح ومرح وإذا ضحكه يملأ الجو من حوله ،
وإذا حركته العنيفة تضحك منه أصحابه وتلفت إليه غيرهم من
الناس . وكان أيسر الأشياء يسخطه فإذا هو مغضب قد خرج عن
طوره ، وإذا عيناه تقدحان شررا وإذا فمه ينفجر عن أشنع اللفظ
وابشعه ، وإذا جسمه يدفع إلى حركات مضطربة تدعو إلى الإشفاق
عليه حيناً وإلى الإشفاق منه حيناً وإلى الضحك منه فى أكثر الأحيان .
وكان حكمه على الأشياء قاصرا أو واهيا منحلا ، لا يعتمد على
تفكير صحيح ولا على منطق دقيق ولا على شعور صادق بحقائق
الأشياء ، وإنما كان له ومازال له منطق خاص لا يكاد الناس يفهمونه عنه
ولا يكاد الناس يقبلونه منه ، وإنما يسمعون منه إذا تكلم فيدهشون
ويأخذهم شيء من العجب . فإذا ردوا عليه متكرين أخرجه انكارهم عن
طوره ودفعه إلى الغضب الثائر والسخط العنيف . فهم بين اثنتين
أما أن يجاروه فيرضى وتغضب عقولهم ، وأما أن يخاصموه فيغضب
وترضى عقولهم . وقد هموا بالثانية فوجدوا منه شططا وأرهقوه من

أمرهم عسرا وانتهت طفولته الجامعة إلى ان تنتصر على عقولهم
الراجعة .

وأكبر الظن انه قد تعود هذه المجارة والمدارة منذ طفولته الأولى
فاستجاب أبواه إلى كل ما كان يريد وحققا له كل ما كان يبتغي ، فنشأ
واثقا بأن العالم قد خلق له يدعو فيجاب . ويأمر فيطاع وبأن كلمة لا لم
تخلق لتسمعها أذناه وإنما خلقت لينطق بها لسانه وأكبر الظن أيضا ان
هذا الحظ قد رافقه في دراساته الأولى . وأية ذلك ان سيدنا لم يكذب
يغضب عليه ويؤذيه بعصاه مرة حتى حوله أبواه من الكتاب إلى
المدارس النظامية التي لا يضرب فيها التلاميذ . وليس من شك في ان
حب أبيه له ورعايته لهذا المزاج المدلل الرقيق وحرصه على
الا يتعرض لما يكره أو ان يرد عما يريد كل ذلك قد رافقه من قريب
أو بعيد فلم تصدمه التجارب القاسية ولم تعلمه المصاعب ان ظروف
الحياة يجب ان تتسلط على الناس أكثر مما يتسلط الناس عليها وان
تؤثر في الناس أكثر مما يؤثر الناس فيها . فادرك الشباب على هذه
الحال مؤمنا بنفسه كما يؤمن الطفل بنفسه مغامرا كما يغامر الطفل ،
لا يفكر ولا يقدر ولا يرجو لشيء وقارا وإنما يريد فيقدم على ما يريد .
والغريب انه كان يبلغ كل ما يريد . كان يبلغ كل ما يريد لانه نشأ في
أسرة موفورة لها حظ من ثراء ونصيب من الاتصال بالأغنياء وأصحاب
الجاه ، فكان ثراء الأسرة وحبها له وعطفها عليه كل ذلك يذلل له
المصاعب الخاصة ، وكان اتصال الأسرة بأصحاب الجاه والغنى يذلل
له المصاعب الاجتماعية التي كان يمكن ان تعترض طريقه في الحياة
وليس أدل على ذلك من انه رأى الناس يكتبون فحاول ان يكتب ثم أظهر
أسرته على ما كتب فاثنت عليه عن علم أو جهل . ثم أظهر من اتصل
بهم أسرته على ما كتب فاثنوا عليه عن علم أو جهل . ثم رأى الناس
ينشرون فهم ان ينشر كغيره من الناس ولكن الصحف امتنعت عليه
فوجد من ذوى الغنى والجاه من يتوسط له عند هذه الصحيفة أو تلك
وإذا هو يرى اسمه مطبوعا في مجلة شهرية أو اسبوعية ثم في
صحيفة سيارة متواضعة ثم في صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، وإذا

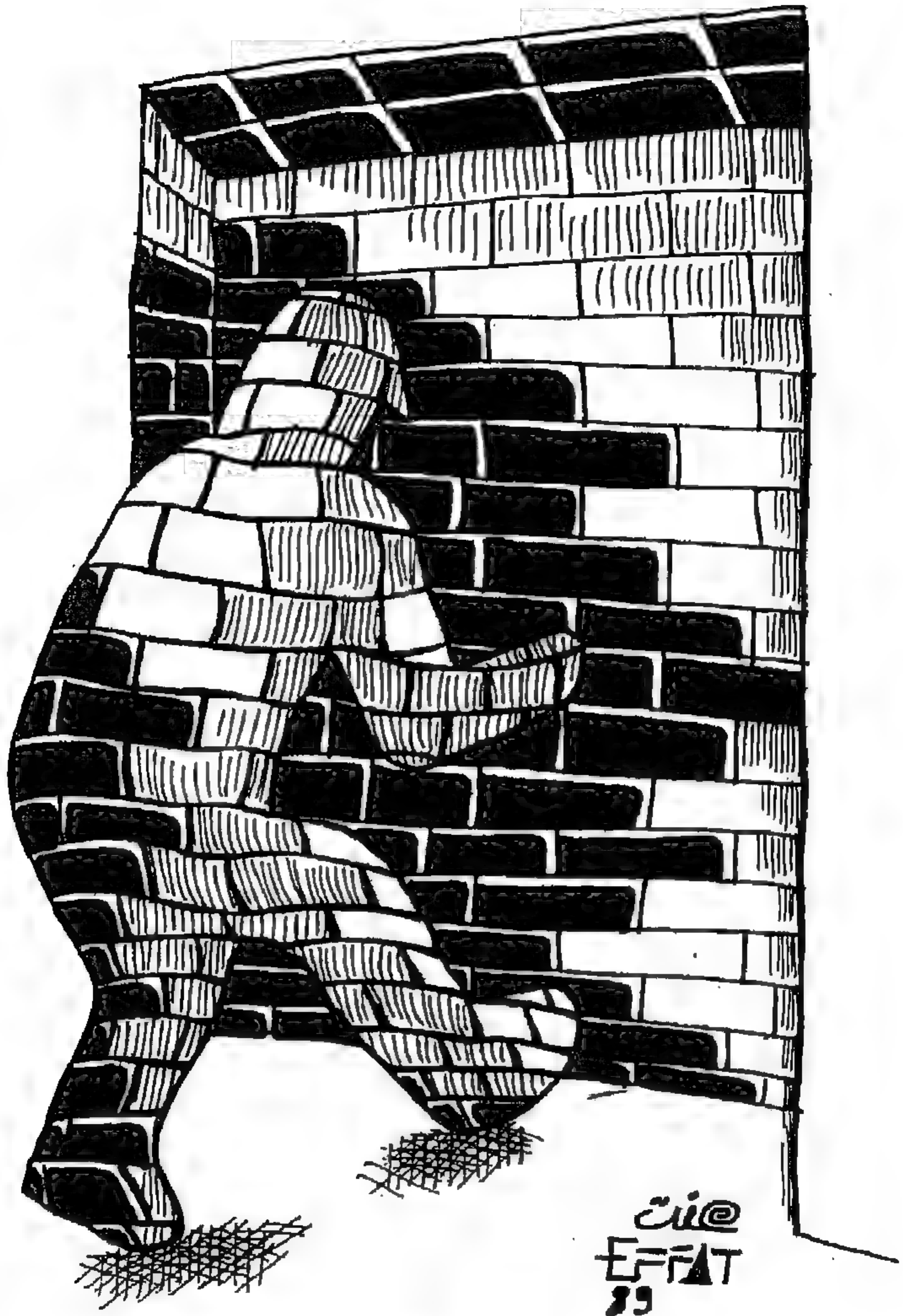
هو كاتب كغيره من الكتاب يقرأ نفسه ولا يقرأه الناس بعد ذلك فأما الذين يرونه ويعرفونه فيرضون ويثنون ويشجعون وأما الذين لا يرونه ولا يعرفونه فقد يرضون وقد يسخطون وقد يعرفون وقد ينكرون ولكن صاحبنا لا يعلم من ذلك شيئاً ولا يعنيه أن يعلم من ذلك شيئاً .

والمهم أنه لم يكد يتم الدرس حتى كان في رأى نفسه ورأى ذوى معرفته كاتباً ممتازاً . ولم يكد يعود من أوربا حتى هجم على القاليف كما هجم من قبل على التحرير ، وإذا له كتب تذايع وتباع وإذا أيسر الثناء على فصل يحرره أو كتاب ينشره يثير في نفسه من الرضى ما يخرجها عن طورها ، وإذا أيسر النقد لفصل يحرره أو كتاب ينشره يثير في نفسه من السخط ما يخرجها عن طورها . وإذا ثقت به بنفسه على نحو ما يثق الأطفال بأنفسهم تفرضه على قراء الصحف والكتب والمجلات . ثم لا تكاد الأيام تتقدم حتى تضيق الحياة إلى هذه الثقة ثقة أخرى ، وإذا الأمر يستحيل في نفسه إلى الغرور الذى لا حد له في طول أو عرض أو عمق إن صح أن تكون للغرور أبعاد ، فقد اتصل صاحبنا بوجوه الناس وسراتهم ، واختلف إلى انديتهم ومجالسهم وفرض نفسه عليهم بحكم المودة والقربة والصلات المختلفة ، فأصبح واحداً منهم يشارك في ما يشاركون فيه من شؤون الحياة العامة والخاصة ويسرف على نفسه وعلى الناس في هذه المشاركة ، والأيام تبسم له في أكثر الأحيان ، ولا تعبس له إلا قليلاً وهي لا تعبس له مع ذلك إلا بمقدار .

وفي أحداث التطور السياسى والاضطراب الخلقى والانتقال الاجتماعى وما كان من تغير القيم واختلاف المقاييس ما يتم القصة إن كانت في حاجة إلى إتمام ويكمل الصورة إن كانت في حاجة إلى إكمال . ولكن الشيء المحقق هو أن الحياة المستقرة الثابتة التى تجرى الأمور فيها على إذلالها تعلم الناس أن ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، ومضاء العزيمة ، والصبر على المكروه ، والاحتمال للخطوب واخذ النفس بما يشق عليها ، وتجنبها الطرق الممهدة والأمور الميسرة هي الخصال

التي تبلغ بالناس ما يسمون إليه من نجاح وفوز ولكن الحياة المنتقلة
المنطورة التي لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تسكن إلا لتضطرب تعلم الناس
ان الطفولة المتصلة قد ترفع أصحابها إلى مكان الألفاظ .
قالت السيدة وكانت أديبة أريية : لقد أخطأ علماء البيان حين
لم يرضوا عن هذا البيت الصادق الجميل من قول الشاعر القديم :
والعيش خير في ظلا ل النوك ممن عاش كدا





الظلال المائية

لم يشعر بطرق الباب حين طرق ولا بفتحه حين فتح . ولم يحس مكان الخادم حين أقبلت تحمل الشاي فوضعتة على المائدة عن يمينه ، وألقت إليه نظرة سريعة فيها شيء من عجب وكادت ترفع كتفها ساخرة ، لولا أن ملكت نفسها واستحضرت ما يجب عليها من توقير سيدها ، فأنصرفت متباطئة متناقلة ، حتى إذا بلغت الباب فتحتة في شيء قليل من العنف وأغلقتة من ورائها في شيء قليل من العنف أيضا تريد أن تنبه هذا الذي لا يتنبه لشيء لأنه مغرق في قراءته . على أنها لم تكد تغلق الباب من ورائها حتى أحست شيئا من راحة الضمير فقد أدت الواجب كاملا ، حملت إلى سيدها الشاي في أمانه ، وطرقت الباب وخيل إليها أنها سمعت الإذن لها بالدخول ، فدخلت وخرجت وأتت من الحركات ما يوقظ النائم فكيف بتنبيه الغافل أو الذاهل أو المغرق في القراءة ؟ لقد أدت الواجب كاملا فلا عليها أن يتنبه سيدها أو لا يتنبه ، ولا عليها أن يشرب الشاي وهو ساخن كما يجب أو أن يشربه وقد أدركه الفتور أو البرد أو ألا يشربه أصلا . والواقع أن سيدها لم يتنبه لمقدمها ولا لانصرافها ولا للشاي الذي كان يدعو عن يمينه ، ولكنه لم يكن يسمع دعاء ولا يجد الظما كما تعود أن يجده كل يوم في هذا الموعد الذي كان يقدم إليه فيه الشاي .

كان مغرقا في القراءة ثم انتهى من الكتاب الذي كان يقرأ فيه إلى فصل لم يتجاوزه ، وإنما عاد إليه فقرأه مرة ومرة ، ثم كف عن القراءة ولكنه وصل بصره في هذا الفصل الذي أعاد قراءته وظل مطرقا ممعنا في الاطراق والتفكير ، ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئا وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى

ويفكر ولا يحقق شيئاً ، ثم تتسع ابتسامته قليلاً ثم يتفرج فمه عن ضحك يريد أن يعلو ، ويملاً الغرفة لولا أنه يمسكه ويوشك أن يرده إلى جوفه رداً لأنه قد ثاب نفسه فجأة واشفق أن يسمع ضحكه من وراء الباب فتظن به الظنون ، هنالك التفت فرأى أبريق الشاي كئيباً مستخدماً لكثرة مادعا إلى نفسه والحق في الدعاء فلم يستجب له أحد لأن دعاءه لم يبلغ أحداً . فاقبل صاحبنا على الأبريق يمسكه بيده مساً خفيفاً ثم يمسحه بيده ممحاً متصلاً كأنما يترضاه ويعزيه . وقد أحس برد هذا الأبريق وعرف أن الشاي الذي يحتويه لم يعد ملائماً لذوقه وألفه ، وهم أن يدق الجرس ويدعو الخادم لتأتيه بشاي جديد ولكنه استحميا واشفق أن تسخر منه الخادم . إذا رأت شايها لم يمس وإن تعيد القصة على امراته وبنيه فلا يفرغ منهم ولا من عبثهم إذا كان العشاء . فلم يربدا من أن يشرب الشاي كما هو ، وقد ملأ قدحه وجعل يدير فيه المعلقة يريد أن يذيب هذا السكر الذي يستعصى ولا يريد أن يذوب في هذا السائل البارد . ولكن صاحبنا نسي الشاي مرة أخرى وجعلت يده تدير هذه المعلقة في هذا القدر إدارة آلية غير شاعرة بنفسها لأنه عاد إلى التفكير في هذا الفصل الذي كان يردد قراءته آنفاً . ثم عاد إلى التفكير في هذا الفصل ثم لم يطل الوقوف عنده هذه المرة ، وإنما ذهب به الخيال مذاهب مختلفة لم تلبث أن ردت به إلى الابتسام ثم إلى الضحك المكظوم .

وكان هذا الفصل من كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء ويجب أن أروي لك بعضه لتعذر صاحبنا في إطالة الوقوف عنده والتفكير فيه ثم في اتخاذه معراجاً يرقى فيه إلى سماء بعيدة جداً من سماوات الخيال : « يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بناته مجارى دمه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته .. »

فقد وقفه هذا الكلام الغريب ، أضحكته الصور الظاهرة منه أول الأمر ، ثم جعل يستعرض طائفة من أصدقائه وذوى معرفته فيتخيل بعضهم ماشياً على رأسه قد اتخذ الطربوش أو العمامة أو القلنسوة

غطاء لرجليه ، ويتخيل بعضهم باكيا بإحدى أصابعه أو أكلا بإحدى أذنيه . فتدفعه هذه الصور مطبقة على ما يعرف من أصحابه إلى الإغراق فى الضحك ثم تثوب إلى نفسه شيئا فشيئا ، ويقدم عقله على الجذ قليلا . وإذا هو ينظر إلى الأمر نظرة فلسفية حازمة فيرى أن صاحب هذه الخواطر لم يخطئ . فقد خلق هذا العالم على هذا النحو الذى نعرفه وكان من الجائز أن يخلق على نحو آخر ، بل من الجائز أن يحوله خالقه من هذا النحو الذى خلقه عليه إلى نحو آخر يمشى فيه الناس على رءوسهم وينظرون بأقدامهم ويذوقون بأذانهم .. إلى آخر ما زعم أبو العلاء .

ومدامت قدرة الله شاملة فلن يعجزها شيء . ثم يتلو فى نفسه الآية الكريمة : « وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » قدرة الله إذن شاملة لا يعجزها شيء مهما يكن ، وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى نفسه ملحا عليها إلحاحا شديدا ، وجعل خياله يتصور ألوانا من الأشياء لم يرها الناس ولم يتعودوا أن يروها أو يتحدثوا عنها ويقول لنفسه إن الله قادر على أن يخلق هذه الأشياء كما اتخيلها وأشياء أخرى لا اتخيلها أنا . وإنما يتخيلها غيرى من الناس أو لا تخطر للناس على بال . ثم تعرض لخياله صور يقف عندها وقوفا طويلا . فانه قادر على أن يصور ما يمتاز الناس به من الفضائل فى شكل فتيات حسان يوسعن أصحابها ثناء وتشجيعا . والله قادر على أن يصور ما يتصف به الناس من الرذائل فى شكل فتيات قباح يشبعن من يتصف بهن ذما ولوما وتقريعا .

ثم يأخذ فى استقصاء ما يعرف من أخلاق نفسه فيرى وفاءه للأصدقاء وبره بهم وإيثاره لهم بالمعروف وقد تصور أمامه فتاة حسناء تهدى إليه ابتسامات حلوة من بعد ، ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم تلحظه لحظا فيه كثير من الحب والعطف والحنان . ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم ترسل إليه صوتا عذبا كأنه صوت الملائكة لو أنه سمع للملائكة غناء

أو حديثاً . وهذا الصوت يحمل إليه دعابة حلوة وتحية كريمة . وهو يجد اللذة كل اللذة فيما يرى والمتعة كل المتعة فيما يسمع ولكن هذا الوجه الرائع الجميل الذى يدنو منه شيئاً فشيئاً لا يلبث أن تغشاه سحابة رقيقة من الكآبة والحزن ، ثم تزداد هذه السحابة كثافة وثقلا وبشاعة كلما دنا منه ذلك الوجه الذى كان يراه رائعا جميلا . وقد خطر له فى أثناء ذلك أنه لم يكن وفيا كل الوفاء ولا برا كل البر وأنه فى ذات يوم قد خان العهد وجحد المودة ، وانكر الجميل وعق الصديق ، وأنه قد أقدم طائعا أو كارها على بعض الغدر الذى يحاول أن ينساه فلا يستطيع ولا يكاد يفرغ من هذا التفكير حتى يحس شخصا منكرا بشعا قد وقف عن يمينه وجعلت أصابعه الغلاظ السمجة تعبت فى شعره ذاهبة جائية وجعل صوته خافتا أشد الخفوت ولكنه منكر أشنع النكر يقول له :

يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه ، ويقدر ربنا أن يحيى الموتى ، ويقدر ربنا أن يصور مافى نفوس الناس من الفضائل فتيات حسنا ويقدر ربنا أن يرد هؤلاء الفتيات الحسان قبيحات بشعات منكرات اللفظ واللحظ والصورة . ويقدر ربنا أن يخرج هؤلاء الفتيات من القبح إلى الحسن ومن البشاعة إلى الجمال فالنفس الإنسانية واحدة تحسن مرة وتسيء مرات ، والله قادر على أن يصور لها عملها فتاة يسبغ عليها الجمال والحسن مرة ويصب عليها القبح والبشاعة مرة أخرى . انظر . ويفتح عينيه فيرى فتاته تلك قد عادت إلى جمالها وروعتها ، وقد أخذت ابتساماتها تمتلئ سحرا ولحظاتها تمتلئ فتونا وصوتها يمتلئ موسيقى تخطب القلوب وتعبت بالآللاب وهى تتلو « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » وقد تنبه صاحبنا مذعورا أشد الذعر وظن أن قد أخذته غفوة فنام ، وعبثت به خواطر أبى العلاء فصور له فى غفوته هذا الحلم الغريب وقد أخذ يسترد نفسه النافرة ويدعو خواطره الشاردة يستعين على ذلك بهذا القدح من الشاى عن يمينه فهو يرفعه إلى فمه فيفرغه فى لحظة ثم يرده إلى مكانه فى شئ من عنف مقصود يريد أن يحدث

صوتا يعيد إليه صوابه كله ويطرد من هذه الغرفة ما رددت فيها الأحلام من تلك الأصوات ، ولكنه ينظر فإذا أشخاص قائمة في أقصى الغرفة منها الحسن الرائع ومنها القبيح البشع وكلها تنطق بصوت يوشك أن يكون صوتا واحدا ، يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدميه ويمشي على رأسه . ويقدر ربنا أن يحيى الموتى ويميت الأحياء ويقدر ربنا أن يصور الفضائل والردائل فتيات حسنا أو قباحا ، ويقدر ربنا أن يملأ الأرض بهؤلاء الفتيات تصور كل واحدة منهن ما يحدث الناس من أعمال فيها الخير والشر وفيها العرف والنكر ، ويقدر ربنا أن يخفي هذه الظلال عن أعين الناس ما شغلتهم الحياة ، وأن يظهر هذه الظلال لأعين الناس إذا خلوا إلى أنفسهم وحاسبوها حسابا عسيرا أو يسيرا . وقد امتلأ قلب صاحبنا رعبا . وهم أن ينهض بنفسه من هذه الغرفة المشؤومة الموبوءة وليجد عند أهله وبنيه أنسب من هذه الوحشة ، ولكنه لا يجد قوة على النهوض كأنما اتصل بكرسيه اتصالا وكان كرسيه قد سمر في الأرض وإذا صيحة هائلة تملأ الغرفة ويفتح لها الباب وتدخل منه امراته مروعة تسأله : ما خطبك ؟ فيجيب في صوت غريب يمتزج فيه الخوف بالهدوء والضحك بالخجل : ما أدري لعل غفوت فاخذني ما يشبه الكابوس ولكن صوتا خافقا جدا يسمعه هو ولا تسمعه امراته وهذا الصوت يهمس في أذنه ، كلا لم تغف ولم تروك الأحلام والكابوس وإنما رايت الظلال الهائلة ولن تامن منذ اليوم أن تراها .

قلت لمحدثي وكان طبيبا بالأعصاب : أتريد أن تقول أن من الخير أن يحسن الناس اختيار ما يقرأون من الكتب ، فإن القراءة التي يمضي فيها أصحابها على غير اختيار سابق لما يلائم أعصابهم وامزجتهم قد تنهى بهم إلى شر عظيم . قال محدثي هيهات وكيف السبيل إلى تنظيم القراءة للرجال العاقلين وكيف السبيل إلى أن يعرف الناس ما يلائمهم وما لا يلائمهم مما يقرأون ؟ هيهات لم أرد إلى هذا ولا يمكن أن أريد إنما أحببت أن أبين لك أن قلب الإنسان غريب يقسو أحيانا فإذا هو كالحجارة أو أشد قسوة ويلين أحيانا فإذا هو كهذه الأرض الرخوة

التي امتلأت ماء لا تكاد تمس حتى تنفجر منها العيون واليتابيع وقلب
صاحبنا هذا قد قسا فكان كالحجارة أو أشد قسوة ، فأتى ما أتى من
الشرولان فكان كهذه الأرض التي امتلأت ماء ، مسها أبو العلاء بخاطره
هذا الغريب فتفجر منها هذا ينبوع الذي نستطيع أن نسميه ينبوع
الندم .

وأطرق محدثي الطبيب ساعة ثم رفع رأسه إلى ضاحكا وهو يقول :
نعم ان قلب الإنسان لغريب أتذكر ما قال فيه جوته انه كبير جدا لا يملأه
شيء وهش جدا يحطمه أيسر شيء .





غلظ

كان محمد بن عبد الملك الزيات قاسى القلب غليظ
الكبد جافى الطبع بليد المزاج . وكان على هذا
كله اديبا مرهف الحس نافذ البصيرة رقيق
الشعور ، صافى الذوق مترف العقل ممتازا فيما
يكتب من نثر وفيما يقرض من شعر . وكانت
السياسة ، والسياسة وحدها ، هى التى اتاحت
لهذين الشخصين المتناقضين ان يعيشا فى جسم واحد وان يتسميا
باسم واحد ، وان يصدر عنهما مع ذلك من الأعمال والأقوال ما ليس إلى
التوفيق بينه سبيل .

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات أقسى الناس فى القول والعمل
ما تولى أمور الحكم ، وكان أرق الناس قولا وعملا مافرغ لحياته
الخاصة . وقد ذهبت حياته الخاصة مع ما يذهب من حياة الناس .
وبقيت من حياته العامة آثار تصور نفسه البشعة وقلبه القاسى وطبعه
الجافى وعنفه الذى لم يكد تاريخ المسلمين يعرف له نظيرا .
وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول فيما كان يقول : ان الرحمة
خور فى الطبيعة ، وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقترب فيما كان
يقترب من الآثام . أذاق الناس ألوانا من العذاب لم يعرفها قبله عرب
ولا عجم . والله عز وجل يعجل الانتقام حيناً ويملى للمقساة الجفاة
الظالمين أحيانا ، وقد عجل الانتقام من محمد بن عبد الملك الزيات
فذاق العذاب الذى أذاقه الناس أيام حكمه ، وكان معذبه يقول له « ذق
إنك انت العزيز الكريم » .

ولست أدري لم ذكرت محمد بن عبد الملك الزيات وقصته هذه
البشعة ، وسيرته هذه المتكرة وحكمه هذا البغيض ، وقد تغيرت حياة
الناس فرقت طباعهم بعد جفوة ، ولانت قلوبهم بعد قسوة ، ولم يبق

بينهم في مصر على الأقل من يقول ان الرحمة خور في الطبيعة ، ومن يعذب الناس في تنور قد فرشت أرضه بالمسامير المدببة ، وقد امتدت هذه المسامير المدببة في سقفه وجنباة فما يقيم فيه المعذب البائس إلا على هذه المسامير تأخذ لحمه من كل ناحية إن أقام ساكنا أو تحرك في تنوره هذا المنكر البشع .

ليس في مصر شيء من هذا لأننا قد تحضرنا فرقت طباعنا وصفت أدواقنا ولانت قلوبنا وتهذبت نفوسنا . واذن فما الذى يذكرني بمحمد ابن عبد الملك الزيات في القرن الرابع عشر للهجرة ، وفي مدينة القاهرة التى هى عاصمة مصر التى قال عنها إسماعيل العظيم رحمه الله « إنها جزء من أوربا » .

ذكرنى بمحمد بن عبد الملك الزيات فى قسوته الغليظة الجافية ما إلا لحظة من أن الترف لم يغير من غرائزنا شيئا ، وإنما علمها القسوة المترفة وعلمها الافتنان فى العذاب وعلمها الترف فى ألوان الانتقام ، فنحن لا نعذب الأجسام وإنما نعذب النفوس ، ونحن لا نلقى الناس فى تنور أشرعت فيه المسامير من جميع أقطاره وإنما نلقى الناس فى ألوان من العذاب ليست أقل بشاعة ولا نكرا من هذا التنور الذى ابتكره ذلك الوزير العباسى فى القرن الثالث للهجرة وفى مدينة السلام .

وليس فى هذا شيء من الغرابة فإن تقدم الحضارة الإنسانية لم يرق العقل وحده ، ولا الذوق وحده ، وإنما رقى الغرائز أيضا وعلمها فنونا من القسوة ما كانت لتخطر لمحمد بن عبد الملك الزيات واضرابه على بال . وللفرنسيين تعبير يصور هذا الترف فى القسوة وهذا الافتنان فى الانتقام ، فهم يقولون فيمن يصب على الناس عذابا هادئا ولكنه متصل منته إلى أبشع الغايات ، انه ينضج من يعذبه على نار هادئة . ونحن والحمد لله بارعون كل البراعة فى الإنضاج على النار الهادئة ، نجد فى هذا لذة أئمة خبيثة توشك أن تكون مسخا لما كان الإنسان يظن أنه يمتاز به من ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وصفاء الذوق ودقة الطبع . وأى شيء أبغض وأبشع وأشد فى النفوس نكرا من أن تصب على خصمك هذا العذاب الهين اللين الرقيق ، الذى لا يكاد يرى ولا تكاد آثاره

تحس ، ولكنه يتصل ويمضى مع الدقائق والساعات ومع الأيام والليالي ومع الأسابيع والأشهر والأعوام ، حتى يبلغ ببطئه هذا القطيع الضعاف ما كان يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات بعذابه المفكر السريع .

وأبشع من هذا كله وأشد من هذا كله نكرا أن يصطبغ هذا العذاب الهادئ المتصل البطيء بصبغة من العدل أو مما اتفقنا على أن نسميه عدلا ، فلا يجوز إنكاره ولا يباح نقده ولا يصح أن يلام فيه الذين يقترفونه ، لأنهم ينفذون القانون وينفذونه في دقة حازمة صارمة ، وهم يحمدون لذلك ولا يلامون فيه ، وكيف يلام الناس حين ينفذون القانون ؟ وكيف يعاب الناس حين يتشرون هذا العدل الذي يصنعونه صناعة ويتكفلونه تكلفا ويناقضون به طبائع الأشياء ويناقضون به هذه القوانين العليا التي لم يضعها برلمان ولم يشرعها ملك ولا حاكم ، وإنما ركبت في نفوس الناس تركيبا وجعلت جزءا من فطرتهم .

وما أشد حاجة الناس إلى أن يفرغوا لأنفسهم بين حين وحين ويتدبروا أعمالهم وأقوالهم بين وقت ووقت ، ويضعوا أنفسهم حيث يضعون ضحاياهم ، ويسألون أنفسهم أين يصبون لما يصبون على الناس من هذا العذاب الهادئ البطيء المتصل لو أن غيرهم صبه عليهم في هدوء وبطء واتصال ، هذا الموظف في وزارة المعارف الذي أراد أن يلحق طفلا من أطفاله بروضة من رياض الوزارة لينشأ مع أخويه فلم تكتف الوزارة بأن ردت طفله الجديد ، ولكنها ألحقت به في البيت أخويه اللذين أقاما في الروضة عامين أو أكثر من عامين ، ثم حولتهما بعد ذلك إلى روضة خيالية قد أنشئت في عقول الموظفين في وزارة المعارف ولم تر الشمس إلا بعد وقت غير قصير ، وقد ذهب هذا الموظف بأطفاله إلى روضتهم الجديدة البعيدة فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بهم فلم يجد شيئا ، ثم فتش واستقصى . وسأل القاضي والداني ، وسأل مكتب البريد فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بعد ذلك فوجد دارا مهدمة ليس فيها مرفق ولا أداة من أدوات التعليم والتربية واللعب ، ليس فيها طعام يؤكل ولا ماء يشرب ، فعاد بأطفاله إلى داره

كئيبا محزوننا كاسف البال ، وكان قد شكى للوزير فلم يسمع الوزير له
او لم يعلم الوزير بانه قد شكى إليه .

وقد جعل كل ما أصبح رأى أطفاله يكون ، لأن سيارة الوزارة التي
كانت تحملهم إلى الروضة في الأعوام الماضية تمر بهم مصبحة ممسية
فلا تغدو بهم على الروضة ولا تروح بهم منها ، وإنما تمر بهم ساخرة
منهم مزدرية لهم تحمل أترابهم فرحين مرحين يبتسمون للصباح المشرق
الذى يسوقهم إلى المدرسة ، ويبتسمون للنهار المبصر الذى يردهم إلى
دورهم ، وهؤلاء الأطفال البائسون يرون سياراتهم ويرون أترابهم دون
أن يستطيعوا ركوب السيارة أو مشاركة الأتراب فى ابتسامات الغدو
أو ابتسامات الرواح .

رأى هذا الموظف أطفاله على هذه الحال ، وذاق هذا الموظف مع
أطفاله مرارة الحرمان وقسوة هذا العذاب ، وقد أراد سوء حظه وسوء
حظهم أن يكون هؤلاء الأطفال اليتامى قد فقدوا أهم كما كان هو مترملا
قد فقد زوجته ، وكان هذا الموظف يجد فى تربية أطفاله وتنشئتهم من
العزاء عن فقد زوجته ، وكان معتقدا أنه يرضى نفس امراته كلما نجح
فى العناية بأطفاله وفى تربيتهم لأنه يؤدى لهم ما كانت خليفة أن
تؤديه لو أتيح لها البقاء . فلما أودى الأطفال فى تعليمهم وفى لعبهم ،
ولما أودى الأب فى تربية أطفاله وتنشئتهم ولما رأى الأب دموع أطفاله
مع الصباح ودموع أطفاله مع المساء وضجر أطفاله أثناء النهار
لم يستطع على ذلك صبورا ، ولم يملك نفسه ، فشكا فى الصحف لعل
الوزير يقرأ شكاته فيمسسه بشيء من الإنصاف ويمس أطفاله بشيء من
العطف ويرد إليهم وإليه حقهم من العدل الذى كلف أن يشيعه بين
الناس .

شكا ولكن الوزير لم ينصفه ولم يعطف على أطفاله ولم يرد إليهم
ولا إليه قليلا من العدل ولا كثيرا ، لم يفكر فى الأب الأرمل ولا فى الأم
الميتة ولا فى الأطفال الصغار اليتامى ، وإنما فكر فى الموظف الذى
نقد الوزارة فى الصحف ورأى أن هذا النقد اثم فى ذات الحكومة وأن
القانون يعاقب عليه .

يالعقول الواسعة . يالقلوب الرحيمة . ياللطباع المهذبة .
يالأنواق المصفاة . أما الأبوة البائسة وأما الطفولة التعسة فلا يحفل
بها الوزراء ولا يلتفتون إليها ولا يقفون عندها ، لأنهم ان فعلوا ذلك
كانوا رحماء ، والرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول محمد ابن
عبد الملك الزيات .

واما ان يلفت موظف وزارة المعارف إلى واجبها ويدلها على خطئها
ويدعوها إلى إصلاح هذا الخطأ فهذا هو الاثم كل الاثم ، والإجرام كل
الإجرام ، وهو التقصير في ذات القانون وهو الخروج على النظام ،
والسكوت على هذا ضعف أى ضعف ، والعقاب على هذا كله عدل أى
عدل وحزم أى حزم . ألا بعدا للعدالة والحزم إن كانت غايتها إهدار
أبوة الأباء وبنوة الأبناء ، وتضييع ما للناس على الدولة من حق
وإلغاء ما على الدولة للناس من واجبات .

أساء الموظف إذن إلى الدولة فى رأى الوزير فيجب أن يعاقب فاما
إساءة الوزير إلى الأمة فى أشخاص هؤلاء الأطفال الصغار فيجب أن
تذهب هدرا ، كذلك يريد العدل المصنوع . وقد حقق مع هذا الموظف
فألقيت عليه أسئلة صريحة أجاب عليها إجابة صريحة وكان من الممكن
ان يقرأ الوزير وأن يقدر أبوة هذا الأب البائس ، وبنوة هؤلاء الأبناء
البائسين ، ولكن الوزير لم يقدر أبوة ولا بنوة ، وإنما قدر أن الحكومة
قد أسىء إليها فيجب أن تنتقم من المسىء ، فأصدر أمره بنقل هذا
الموظف إلى الصعيد الأعلى ، هناك حيث لا توجد رياض للأطفال ،
وحيث لا يجد هؤلاء الأطفال الذين نشئوا فى القاهرة ما يلائم حياتهم
الهائنة المتواضعة ، ولو أن هؤلاء الأطفال أما ترعاهم لسافر أبوهم
إلى الصعيد الأعلى جادا كادا ملتصقا له ولهم أسباب الرزق ، ولكن
الأطفال يتامى لا يعولهم إلا أبوهم ولا يستطيع أن يعولهم فى الصعيد
الأعلى ، فطلب الموظف إلى الوزير أن يعفيه من هذا النقل ليرعى
أطفاله ويقوم منهم مقام الأب والأم جميعا .

ولكن الوزير لم يفكر فى الأبوة البائسة ولا فى الطفولة اليائسة
ولا فى الأمومة التى ذهبت بها الأقدار وإنما فكر فى أن وزارة المعارف

قد أسىء إليها فيجب أن تنتقم من المسيء .

ولذلك أبى الوزير أن يقبل عذر هذا الأب البائس ، وحدد له موعدا يصل فيه إلى الصعيد الأعلى ، ونظر الموظف فإذا هو مخير بين أمرين أحلامهما مر وإيسرهما نكر ، فاما أن يرضى الوزير فيجحد حق ابنائه عليه ويجحد حق امراته عليه أيضا ، حق امراته الميتة التي لا يمكن استرضائها ولا الاعتذار إليها ، واما أن ينهض بحق ابنائه وحق زوجه وحق أبوته فيغضب الوزير وفي غضب الوزير ضياع المنصب وانقطاع المرتب وتعرض الأطفال الصغار للجوع والحرمان .

وقد اختار الموظف فارضى حق الأبوة والبنوة والأمومة واحترام الوزير أيضا بين الرحمة التي أودعها الله في النفوس والعدل الذى صنعه الناس صناعة ، فترك الرحمة التي نشرها الله وأثر العدل الذى صنعه الناس ، وأحال الموظف إلى مجلس التأديب ووقفه عن العمل وقطع مرتبه .

وقد قلت لك اننا بلغنا من الترف فى الانتقام والافتتان فى حب العذاب الهادئ المتصل البطيء ما لم يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات . ففي اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر أرسلت الوزارة إلى البنك كتابا تأمره فيه ألا يصرف لهذا الموظف مرتبه عن شهر أكتوبر وعلم الموظف ذلك من البنك نفسه لا من الوزارة ، وذهب إلى الوزارة فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر يسأل عن هذا القرار فقبل له أنه صدر ولكنه لم يطبع بعد . ومعنى ذلك أن البنك قد عرف القرار قبل أن يعرفه الموظف . ومعنى ذلك أن هذا الموظف ذهب فى آخر الشهر ليتقاضى مرتبه فلم يجد شيئا ولم يكن قد عرف من أمر القرار شيئا . ومعنى ذلك أن هذا الموظف عاد إلى بيته فى ذلك اليوم صفر اليد مما تعود أن يوسع به عليهم ، وأن يرزقهم منه رزقهم حين يصبحون وحين يمسون . ومعنى ذلك أن هذا الموظف لم يعاقب فى نفسه وحدها ، وإنما عوقب فى أطفاله الصغار . ومعنى ذلك أن هذا الموظف لم يعاقب وحده ، وإنما عوقب معه أطفال أرباء أكبرهم فى السادسة وأصغرهم فى الثالثة . لأن هذا الموظف نقد الوزارة فى الصحف . ومعنى ذلك أن

الوزارة أكرم على نفسها من أبوة الآباء وبنوة الأبناء ، وحق اليتامى لافى أن يتعلموا بل فى أن يعيشوا .

هذا هو العدل الذى صنعه الناس والذى تقوم عليه قوة الحكومات . فاما الرحمة التى خلقها الله ، فاما العدل الذى أراد الله أن ينشر فى الأرض ، فأمران لا يثبتان لما ينبغى لوزارة المعارف من كرامة فى نفوس الموظفين . والغريب أن وزير المعارف أب وأن ما أجراه على هذا الموظف يمكن أن يجريه عليه طاغية من الطغاة فى يوم من الأيام ، والغريب أن لوزير المعارف أعوانا كلهم أب ، وكلهم يعرف حق الأبوة وحق البنوة وما ينبغى للأطفال الصغار اليتامى من رعاية وعناية وحماية من الآفات .

كل هذا غريب حقا لأن التسلط يعمى البصائر والأبصار عن حقوق الأبوة والبنوة ، ولأن التسلط يملأ النفوس غرورا وفنونا وتكبيرا وتجبرا ، ويرتفع بها عن الرحمة التى هى خور فى الطبيعة كما كان يقول محمد بن عبد الملك الزيات .

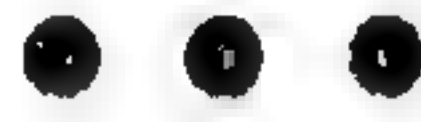
أى العذابين أشد تكرا ! عذاب التنور الذى أشرعت فيه المسامير المدببة والذى يآلم فيه المعذب أياما ثم يموت ، أم هذا العذاب الرقيق الرفيق الرشيق الهادى المتصل البطيء الذى لا يرى ولا تحس آثاره ولكنه يفنى النفوس شيئا فشيئا ، ويعلم الأطفال أن الحرمان قد يؤذى ، وأن الظلم قد يملأ النفوس بأسا ، وأن الجوع قد يكون كرية المذاق .

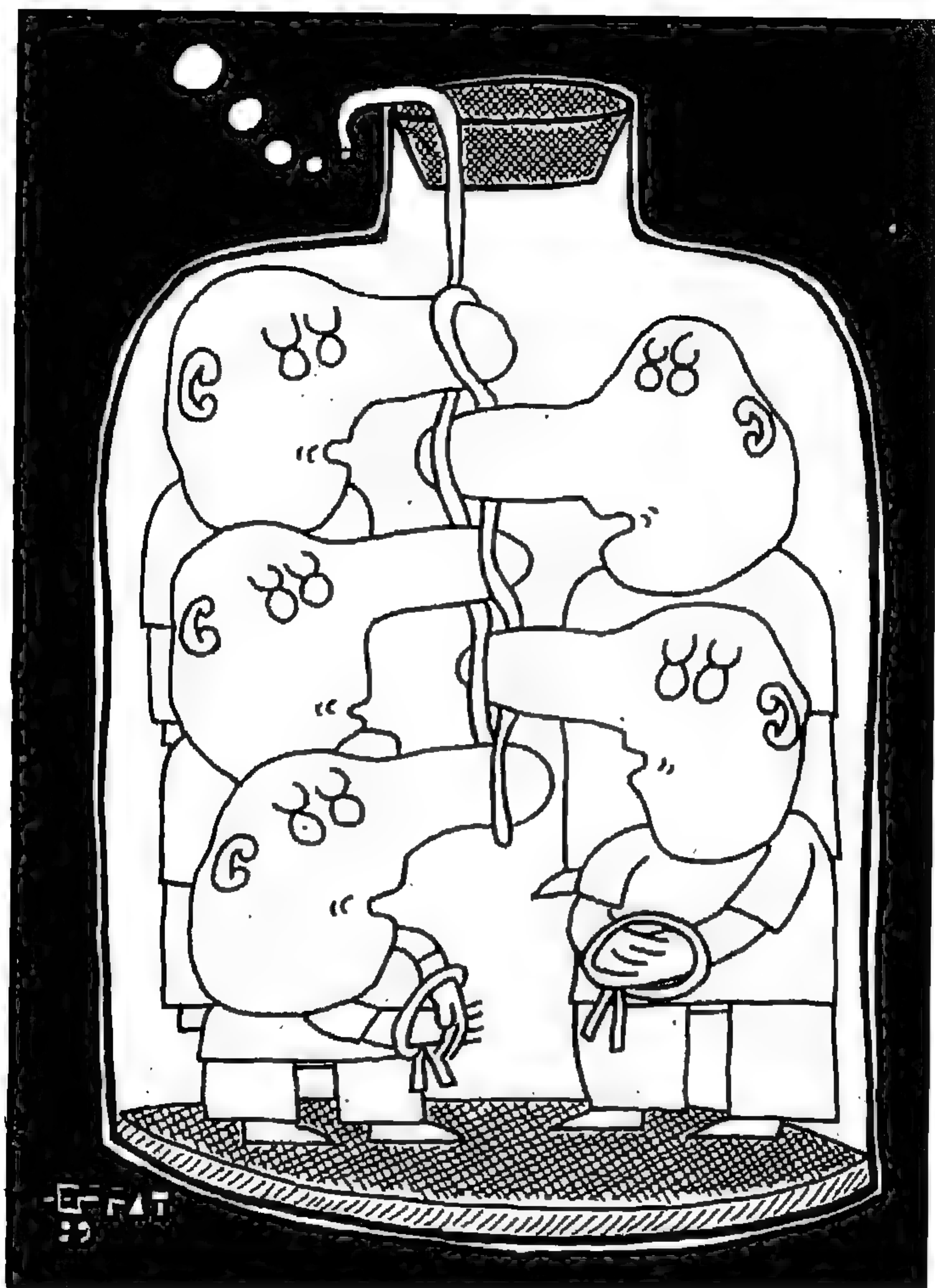
أى العذابين أشد تكرا ، هذا العذاب الذى كان يصبه محمد ابن عبد الملك الزيات على الأجسام حتى تهلك ، أم هذا العذاب الذى يصب فى هذه الأيام على النفوس فيعرضها لفقدان الكرامة وللشعور بالذلة وللاستخذاء أمام المتسلطين إلى هذا انتهت بنا الحضارة المترفة ويقال بعد ذلك أن أخص ما يمتاز به العصر الحديث أنه علم الناس أن لهم ضمائر تحب الخير وتكره الشر ، وتندم حين تصيب الناس بما تكره أن يصيبها الناس به .

ربما كان هذا حقا ، ولكن هذه الضمائر التى استكشفتها الإنسان فى العصر الحديث تمتاز أيضا بالمرونة ، فهى قادرة على أن تتشكل

بما يقدم إليها من الأشكال ، وهي قادرة على أن تستدير مع الشمس ،
وهي قادرة على أن تستقبل الريح من حيث تهب ، وهي قادرة على أن
تلغى أبوة الآباء وبنوة الأبناء وأمومة الأمهات وأن تكن في غيابات
القبور . وهي قادرة على أن تعرض الأطفال الصغار اليتامى للجهل
والفقر والمرض والجوع ، لا شيء إلا أن وزارة المعارف قد نقدت في
الصحف وهي أكرم من أن تنقد في الصحف وان كان الناقدون آباء
لا يعرفون كيف يعلمون أبناءهم .

معذرة أيها القارئ الكريم انى لأشعر أن في هذا الحديث مرارة قد
تؤذى نفسك وتؤلم قلبك ولكنك توافقنى فيما أظن على أن في حياتنا
أشياء أن رضيها ضمير الوزراء وأعوان الوزراء فلا ينبغي أن ترضأها
ضمائر الشعوب .





الشجاعة

لم تخطيء وصفه يا سيدتى ، فهو شجاع بآدق معانى هذه الكلمة وأكملها وأشملها ، ولكن بشرط أن تفهمى من الشجاع معنى غير هذا المعنى المألوف الذى 'أبتذله' الناس فى أدبهم القديم والحديث . فليس فى صاحبنا من شجاعة الناس شىء ولعله أن يكون أبعدهم عنها وأبراهم منها ، وادناهم إلى الخوف الذى يخلع القلوب ، والهلع الذى يفسد المروءة ، والجزع الذى تطير له النفوس شعاعا . وآية ذلك انه حريص أشد الحرص على أن يرضى كل إنسان مشفق أشد الإشفاق من أن يغضب أى إنسان ، لا يحرص على أن يرضى الجماعات أيضا . ولعل حرصه على إرضاء الجماعات أن يكون أشد من حرصه على إرضاء الأفراد ، ولا سيما حين يكون لهذه الجماعات من القوة حظ قليل أو كثير وحين يكون بينها وبين السلطان سبب طويل أو قصير . والأمر عنده فى إرضاء الأفراد والجماعات يدور على ما يرجو من منفعة وما يخشى من مضرة فهو حيثما رجا المنفعة عظيمة كانت . أو يسيرة ، حلو الشمائل سمح الأخلاق سهل المراس ، لين العريكة ، مهذب الطبع ، مثقف الذوق ، عذب الحديث ، وهو على نقائص هذه الخصال كلها إذا لم يرج نفعا ولم يخش ضررا ، فيه ماشاء الله من شراسة الطبع وجفوة الخلق وغلظة الذوق وانحراف المزاج ، وسوء العشرة ، وصعوبة المراس وخشونة الحديث .

وأنتك توافقني ياسيدتي على أن شيئاً من هذه الخصال لا يلائم أخلاق الرجل الشجاع . فالشجاع لا يقيم أمره على الرياء ولا يجرى حياته على المصانعة ، ولا يلين حين تجب الشدة ولا يشتد حين يحسن اللين .

والشجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يسرف في إثارة نفسه بالخير ولا يضحى في سبيل هذا الإيثار بما يجعل الرجل الكريم رجلاً كريماً . ومع ذلك فصاحبنا شجاع بشرط أن تفهمي الشجاع كما أراد أن يفهمه الشاعر القديم حين قال :

وأطرت أطراق الشجاع ولو يرى مساعاً لنايه الشجاع لصمما
فالشجاع هنا اسم لا وصف ، وهو لا يدل على الرجل الذي يصبر نفسه على المكروه ويجشمها الهول في سبيل ما يتم مروءته ويكمل رجولته ، ويرفع منزلته ويجعله ممتازاً بين الممتازين الذين يستحقون الامتياز ، ولا يغضبونه غضباً وإنما يدل على الحية التي تستخفي في جحرها لا تكاد تظهر منه إلا رأسها الدقيق وتظل على حالها هذه مستخفية مطرقة ، حتى إذا مكنتها الفرصة ووجدت مساعاً لنايها لم تضيعها وإنما عضت فصمتت كما يقول هذا الشاعر وبلغت من عضتها وتصميمها ما تريد .

وهذه الحية أو هذا الشجاع لا يستخفي في الجحر دائماً ولكنه يستخفي في رمث الصحراء ويستخفي بين الصخور الغلاظ ويندس في الفراش الوثيرة ، وهو سارب بالليل وسارب بالنهار يحسبه من يراه هادئاً كل الهدوء مطمئناً كل الاطمئنان ولا يكاد يقدر أن على أحد منه بأساً لولا أن الإنسان قد عرف أخلاقه منذ أقدم العصور ، ولكن هدوء الهادئ لا يفر الناس عنه وأطمئنان المطمئن لا ينسى الناس ما بلوا من أخلاقه وهذا هو الفرق الوحيد بين الشجاع الذي نتحدث عنه والشجاع الذي ذكره الشاعر القديم . معروفاً الأذى منتظر الشر قد تواسى الناس ببغضه وخوفه واجتنابه منذ عرفوه . وأما الشجاع الذي نتحدث عنه فإنه رجل مثلنا يشاركنا في كثير من صفات الناس ويضطرب معنا في كثير مما نضطرب فيه من شئون الحياة ، وهو من

اجل ذلك يخدعنا عن نفسه وأمله أن يخدع نفسه عن نفسه أيضا ولست ادري ايهما شر ، شجاع الحيات الذى لا يراه الناس إلا فزعوا منه واتقوا شره أو شجاع الناس الذى نراه فنتطمئن إليه ونصل أسبابنا بأسبابه وتقدم إليه المعروف ونتنظر أن يقدم إلينا المعروف أو الا يصيبنا منه مكروه على أقل تقدير .

وقد زعم بعض الناس للجاحظ ان من الحيات ما له رأسان ، وزعم بعض الاعراب للجاحظ انه رأى هذا الصنف من اصناف الشجعان ، فلما سأل الجاحظ باى الرأسين يسعى وبأيهما يطعم قال انه يفطر باحد رأسيه ويتغذى باحدهما الآخر ويسعى بهما جميعا .. قال الجاحظ وهذا من اكذب الكذب . ومن الجائز أن يكون الاعرابى قد كذب على الجاحظ فى وصفه لشجاع الحيات ولكن من المحقق أن لشجاعنا الأنسى رأسين وانه يفطر بأحدهما ويتغذى بأحدهما الآخر . او قولى ان شئت ياسيدتى ان له لونين من ألوان الغذاء وقد خصص لكل لون منهما رأسا من رأسيه هذين فله غذاء مادي ياتلف من هذا المال الذى يجمعه شيئا فشيئا ويحصله قليلا قليلا ، ويضم بعضه إلى بعض فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، وله غذاء معنوى يمازجه شيء من المادة هو هذه الدرجات التى تسعى لها منذ اتصلت اسبابه بأسباب العمل فى الدواوين ، فهو يلتمسها فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، كما يلتمس غذاءه المادى ذاك . وما أكثر الذين يتاح لهم أن يعملوا فى دواوين الحكومة او غيرها من مكاتب الأعمال العامة ، ويعنون مع ذلك بجمع المال وتدبير الثروة والاستكثار مما يتيح لهم الغنى ويملا أيديهم من حطام الدنيا ، ولكن المهم الذى يمتاز به صاحبنا ويشبه به الشجاع شبيها قويا ، والشجاع ذا الرأسين ، هو طريقته فى جمع المال وتدبير الثروة ، وطريقته فى التماس المناصب وابتغاء الوسائل إلى الرقى فى درجاتها المختلفة . فهو لا يسعى فى ذلك كما يسعى الناس ، وإنما يتأتى له كما يتأتى الشجاع للفريسة التى يعمل فيها تاييه وينفث فيها سمه الناقع .

وقد زعم بعض الصقالبة للجاحظ أيضا أن من الحيات ما يلتف على البقرة الحلوب التفافا حتى يبلغ ضرعها فيرتضعه في شره وما يزال يشرب ما فيه من لبن حتى يمتلىء وينتفخ ويتراخى . وإذا هو يترك البقرة ويستلقى سكران من كثرة ما شرب ولكنه قد اضطر فريسته إلى الهلاك .

وكذلك يفعل صاحبنا في جمعه للمال حين يجمعه وفي التماسه للمنصب حين يلتصقه ، يرى الفريسة أمامه فينظر إليها ويصل بها نفسه وقلبه وعقله ، ثم يثب إليها حين تمكنه الفرصة ثم يلتف عليها وما يزال يمتصها امتصاصا ويرتضعها ارتضاعا حتى يأتى على آخر ما عندها . أورثته أسرته ثروة متواضعة ليست بذات غناء ولكنه لم يقنع بها . ومتى قنع الناس بما يتاح لهم من اعراض الدنيا ، لم يقنع بها وإنما طمع في تنميتها ، وفي تنميتها على حساب جيرانه وخلانه وذوى مودته ، والذين كانت بينهم وبين أسرته صلات المحبة والألفة وحسن الجوار ، فاطرق أطراق الشجاع ، وجعل ينتهز الفرصة حين تسنح ويتربص الدائرة حين تدور ويرقب النائبة حين تنوب . فلا تزال عينه ناظرة إلى ما حوله من أرض جيرانه ولا تزال نفسه متصلة بها حتى تعرض حاجة جار من جيرانه إلى بعض المعونة إلى ما يحتاج إليه صاحب الأرض من هذا القرض الذى يؤدي به الحق حين يلزم ، ويدفع به الخطب حين يلم . هناك يرفع الشجاع رأسه من أطرافه ، وهناك يكون الاطماع ويكون الامتناع ، وهناك يكون الدنو ويكون النأى ، وهناك يكون القرب ويكون الهجر والحاجة ملحة على جاره ولعله أن يشارك في جعل هذه الحاجة ملحة مشددة في الإلحاح ، وما يزال بجاره يبدى له المال ويخفيه عنه حتى إذا وجد مساعدا لنابيه أدى المال وأخذ مكانه رهنا مقبوضا .

وكذلك أنفق حياة طويلة يداعب جيرانه هذه المداعبة المرة ويلاعبهم هذه الملاعبة البغيضة ، حتى ضم أرضهم إلى أرضه ومالههم إلى ماله وحتى ردهم فقراء بعد غنى وأشقياء بعد سعادة ومحتاجين إلى الرفق والعطف بعد أن كانوا يبذلون الرفق والعطف ، وإذا هو

سيدهم ، وقد كان واحدا منهم . وإذا هم يدينون له بالطاعة ويلجأون إليه عند الملمات ، ويعملون في أرض كانت لهم فاصبحت له وأصبحوا هم لها وله في وقت واحد .

وإذا هو يستكبر ويستعلي ويطغى ويبغى ويشق على من كانوا له أكفاء فاصبحوا له أجراء . وكذلك عمل أحد هذين الراسين في الازدراء والالتهام لكل ما كان حوله من المال والثراء ينتهز الفرصة كلما سنحت ويخلقها إذا لم تسنح ويبذل الحيلة كل الحيلة في خلقها وابتكارها ان امتنعت عليه . وهو على هذا كله هادىء وادع مطمئن يشيع في قلوب الذين يرونه أمنا وأنسا ودعة ورققا ، حتى إذا عضهم بنابيه عرفوا كيف تكون مساورة الحيات . ولو كان لهم حظ من ثقافة أو أدب لأنشد كل واحد منهم قول النابغة :

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع
وأما رأسه الثاني فيعمل في القاهرة ، يستقر في مكتب من المكاتب وفي ديوان من الدواوين كما يستقر الشجاع في جحره أو يطرق كما يطرق الشجاع في كتيب من رمال الصحراء ، يسعى هادئا كما يسعى النسيم ، وينساب رقيقا كما ينساب ماء البنبوع ، وهو على ذلك حذر مكر يرقب الفرصة ويسعى بالكيد ، ويفرق بين الصديق ويفرى بالزميل حتى إذا أمكنت الفرصة ووجد مساعا لنابيه صمم وأحسن التصميم ووثب إلى فريسته فانطوى عليها كما ينطوى شجاع الجاحظ على البقرة الحلوب ، وما يزال يمتص فريسته حتى يأتي على آخر ما عنده ، وإذا هو قد ارتقى من منصب إلى منصب ، ووثب من درجة إلى درجة وقفز من مرتبة إلى مرتبة ، وإذا الذين كانوا له رفاقا وزملاء قد أصبحوا له رؤوسين يجدون في طاعته ويصدرون عن أمره ، وقد ملأ الجو من حوله مكرا وكيدا وخبثا ودهاء ونفث السم في البيئة كلها كما ينفث الشجاع سمه في الفريسة حين يظفربها .

وأخص ما يمتاز به الشجاع انه على ما يظهر من لينه ورخاوته وتهالكه ومرونة جسمه شديد الأيد لا يعيا بشيء ، وأقوى ما فيه أنيابه ومعدته . فأنيابه لا يعيبها شيء ومعدته لا يعجزها قضم . وهو من

أجل ذلك لا يتعب ولا يبلغه الجهد مهما يحاول من أمر ومهما يتكلف من مشقة . وهو من أجل ذلك لا يرضى مهما حقق من أمل ولا يقنع مهما يبلغ من أرب ، وهو لا يمضغ دائما ولكنه يمضغ حيناً ويزدرد أحيانا ويهضم على كل حال . وأمر صاحبنا كأمر الشجاع فى هذا كله ، فرأسه العامل فى القرية لا يطرق إلا ليثب ، ورأسه العامل فى القاهرة لا يطمئن إلا ليثور ، ومعدته مضطربة دائما بهذا الهضم المتصل الذى لا يذر شيئا أتى عليه إلا جعله كالرميم .

وللشجاع صفير يؤذى وفحيح يخيف ، ولو قد سمعت صاحبنا ياسيدتى حين يعبث به الطمع ويحركه الإغراء وتدعوه الفريسة إلى القضم والهضم ، لسمعت صياحا منكرا وجئرا بشعا ليس أقل نكرا ولا بشاعة مما يبعثه الشجاع حين يتهاى للوثوب من صفير وفحيح . وليس لشجاع الحيات منزل يختاره ويؤسسه ويؤثر المقام فيه وإنما هو ساع دائما يأوى إلى حيث يحب أن يأوى ويغير حيث يحب أن يغير ، وهو من أجل ذلك شائع الأذى متصل الشر منتشر العدوان ، وصاحبنا يشارك الشجاع فى هذه الخصلة كما يشاركه فى غيرها من الخصال ، فهو لا يؤثر مالا بعينه ولا يؤثر عملا بعينه ولا يؤثر صديقا بعينه ولا يؤثر عدوا بعينه ، وإنما المال كله صالح للجمع وتوفير الثراء ، والعمل كله صالح لنيل المناصب وارتقاء الدرجات والناس كلهم له صديق والناس كلهم له عدو ، وهو قادر على أن يندس فى كل مكان ويحصل فى كل مجلس ، وينساب فى كل ناد ويقول فى كل شيء ويكتب فى كل موضوع وينفث السم حيث يتاح له أن ينفث السم . أى حيث يتاح له أن يتنفس . فالهواء كله قد سخر له يودعه سمه فينقله حيث يسعى النسيم وحيث تجرى الريح عاصفة أو رخاء .

ولشجاع الحيات المصرية شهرة ذائعة وأحاديث شائعة وذكر قديم وصوت بعيد . وعهد مصر كما تعرفين بالحيات قديم ذكرت مع فرعون فى الكتب المنزلة وظهرت مع فرعون فى النقوش والآثار ، ولكن عهد مصر بالشجعان الانسية قريب فيما يظهر ، وهو على قرية خصب بعيد الأثر ، فقد كثرت شجعان الناس فى مصر منذ اضطربت السياسة

وتلاحقت الخطوب ومكر بعض الناس ببعض وكاد بعض الناس لبعض ، وتوشك مصر أن تعرف بشجعان الناس كما عرفت بشجعان الحيات .

قالت السيدة متضاحكة وكانت أريية . حسبك فقد روعتني وأخشى أن تكون قد روعت نفسك ، فاذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعود بالله من أن يتخبطه الشيطان عند الموت ومن أن يموت في سبيله مدبرا ومن أن يموت لديغا .





سَمِيرُ الْإِيلِ

لا تكلف نفسك مشقة ولا جهدا فلن يتاح لك حل
هذا اللغز بالمشقة والجهد ولا بالروية المتصلة
والتفكير الطويل . وليس مصدر ذلك ان هذا اللغز
عسير الحل ، ولا أن الطريق إلى حله ملتوية
متشعبة يوشك سالكها أن يجور فيها عن قصد
السييل ، بل مصدر ذلك ان هذا اللغز يسير جدا
ايسر مما تقدر واقرب إلى الحل مما تظن ، وأن الطريق إلى فهمه قصيرة
مستقيمة لا طول فيها ولا التواء . فأنت ترى صاحبنا أعجوبة من
أعاجيب الدهر وغريبة من غرائب الزمان . تجلس إليه فلا تكاد تسمع
منه صوابا ولا تكاد تفهم عنه شيئا ، وتحدث إليه فلا يفهم عنك
إلا ايسر ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شيء من
العجب لأنك لا تدري أنتحدث إلى عاقل أم تتحدث إلى مجنون .
وأنت تنظر إلى جسمه هذا الذي يمتد عن يمين وشمال ، ومن وراء
وأمام ولا يكاد يرتفع في الجو إلا قليلا ، ولا يكاد يجد من الناس
وكراسيهم ما يسعه كما يسع غيره من الناس ، فيخيل إليك ان هذا
اللحم المتراكب والشحم المتراكم قد ألقى بين نفسه وبين العالم حجابا
صفاقا واستارا كثافا .. فهي لا تكاد تحس من العالم شيئا والعالم
لا يكاد يبلغها إلا بعد عناء شديد ، وأنت تنظر إلى وجهه الضخم الجهم
فترى على شفتيه الغليظتين ابتسامة تدل على البله والغفلة أكثر
مما تصور الفطنة والذكاء ، وترى أنفا ضئيلا قد كاد يفرق فيما يكتنفه
من لحم خديه ، وجعل النفس يتردد فيه محتبسا مختنقا يسمع له
صوت ثقيل بغيض . وترى جبهة ضيقة بارزة قد انبسط فوقها رأس
مفرطح عريض قل فيه الشعر وأخذ فيه الصلع ، وجعلت تبدو من خلاله
رقع ضيقة جرداء حتى أنكره وكره أن يكشف رأسه إلا قليلا

وترى عينين مغمضتين كأن صاحبهما نائم مغرق في النوم فإذا أراد أن ينظر إلى شيء أمامه ، أو إلى إنسان بين يديه ، رفع جفنين متكسرين ورفعهما في شيء من الجهد فبدت من دونهما عيتان صغيرتان منطفئتان لا تصوران يقظة ولا نشاطا ولا ذكاء ، وإنما تصوران نوما وخمولا وغباء شديدا ، فإذا استمعت له وهو يتحدث اضطرت أن تجهد أذنك لينقل عنه الصوت إليك لأنه يتكلم في صوت ليس بالنحيل ولا بالضئيل ولكنه مع ذلك ليس بالقوى ولا بالمرتفع ؟ وإنما هو صوت وسط بين ذلك مطرد منكسر أشبه شيء بالماء الفاتر يريد أن يجري جريانا سواء فتعترضه عقبات يسيرة جدا يتغلب عليها وينشأ عن ذلك فيه تهدج وانحطام بين حين وحين ، فمنظره يؤذك والاستماع له يضمنيك والفهم عنه يشق عليك والوصول إلى نفسه يرهقك من امرك عسرا . والحكم الذى تكونه في نفسك حين تقبل عليه أو تنصرف عنه هو أنه غلطة من غلطات الطبيعة وفلته من فلتات الدهر ، ووهم من أوهام الظروف . كأنما أريد به إلى أن يكون حيوانا من هذه الحيوانات الضخمة ذات الخلق المرتبك والشكل الذى لا يروق ، ثم عدل به في اللحظة الأخيرة إلى شكل الإنسان فلم يحسن تقويمه ، ولم يعتدل قده ، ولم يتسق شكله ، ولم ينفخ فيه من الروح الإنسانى العاقل إلا جزء ضئيل ؟ .

كذلك تحكم عليه حين تلقاه وكذلك تحكم عليه حين تفارقه لولا أنك مضطر إلى أن تذكر هذا الحكم إنكارا وترفضه رفضا وتعترف كما اعترف بأن له حظا عظيما من الذكاء والفتنة ، وبأنه يدبر أمره في حياته الخاصة والعامة تدبير المستبصرين أولى الذكاء النافذ والذهن المتوقد والعقل الذى لا يعبأ بالمشكلات ولا يرتد عن معضلات الأمور . وأنت حائر كل الحيرة في هذا التناقض بين ما يظهر من شكله ومن عقله ، وبين ما يصدر عنه من الأعمال والأقوال التى لا تصدر عن غفلة ولا عن غباء .

ومصدر هذا التناقض الذى تضيق به وتراه لغزا معضلا وتريد أن تلتمس له الحل فلا تجد إلى حله سبيلا ، أنك لم تعرفه كما أعرفه ،

ولم تظهر من أمره على ما أظهر عليه . فصاحبنا أعجوبة من غير شك ، ولكنها أعجوبة لا تكاد تثبت لمن يعرفه حق معرفته . وسبيل ذلك أن صاحبه يوما كاملا ، يوما ياتلف من النهار والليل . فالنهار وحده لا يفسره والليل وحده لا يجلوه ولا بد من أن يتعاون هذان الفرسان اللذان يستبقان دائما ولا يستطيعان أن يجتمعا في مستقر واحد ، لا بد من أن يتعاون هذان الفرسان على تفسير غامضه وتجليه أمره لانهما قد اقتسما نفسه اقتساما كاملا .

• فللنهار منه نصيب لا يعرفه الليل ، وللليل منه نصيب لا يبلوه النهار ، وأية ذلك ان عين الفجر لم تره قط إلا مغرقا في نوم ثقيل أو غارقا في سكر عميق ، وان عين الضحى المشرق لم تره قط إلا يقظان الجسم نائم النفس . وان صدر الليل لم يره قط إلا مرحا فرحا خفيفا رشيقا كأنه لا يحمل هذا الجسم الضخم الثقيل وإنما يحمل جسما قد صور من الهواء ، فهو لا يسكن إلا ليتحرك ، ولا يستقر إلا ليضرب ولا يسكت إلا ليتكلم . وهو لا يتكلم بهذا الصوت الفاتر المتكسر ، وإنما يتكلم بصوت مرتفع عريض يملأ الفضاء ويسمع من بعيد ، وهو لا يجد مشقة ولا جهدا في رفع جفنيه ، ولا في التنفس من أنفه الدقيق الضئيل ، وابتسامته تلك الغافلة البلهاء تستحيل إلى ابتسامة أخرى فيها كثير جدا من الفطنة وفيها كثير جدا من الذكاء .

وهو على كل حال ليس نائما إذا جنه الليل وإنما هو أبعد الناس عن النوم وأعظمهم حظا من اليقظة ، بل قل أنه يقظة كله ، يقظة لا تنام ولا تنيم ، وإنما توقظ الناس من حوله ولعلها تزعجهم إزعاجا ، فهو حياة نائرة فائرة ، وهو حركة هائجة ، وهو تفكير متصل لا يعرف الانقطاع ، وكلام مستمر لا يعرف الوقوف .

فله نفسان ، نفس قد صحبت النهار تنام فيه وتؤذن الناس بأنها مستيقظة ، ونفس قد صحبت الليل ، تسهد فيه وتخيل إلى الذين لا يالفونه أنها نائمة . وكل ما يصدر عنه من الأعمال التي تصور الذكاء ومن هذه الأقوال التي تصور الفطنة إنما هو من وحى نفسه المستيقظة في الليل ، تقدره وتدبره ثم تهينه وتدخره لنفسه النهارية النائمة فيصدر عنها كما تصدر الأحلام عن النائمين .

ولم يكن هذا حاله منذ مارس حياة الرجال وإنما طرا عليه قليلا قليلا .
كما تطرا بعض العلل على بعض المرضى . فقد كان في المدرسة
الثانوية وأثناء الدراسة الجامعية في مصر وفي أوربا فتى كغيره من
الفتيان يشارك أترابه في الدرس ويشاركهم في العبث والمرح ، ولكنه
يمعن في الدرس أكثر مما كانوا يمعنون ويبلغ من النجاح أكثر مما كانوا
يبلغون . فإذا أقبلوا على مرحهم استوفى منه حظا أعظم من
حظوظهم ، وألح فيه إلحاحا كثيرا ما كانوا ينكرونه عليه ويلومونه
فيه ، فلم يكن يلقي لومهم إلا بالسخرية ولم يكن يستقبل أعراضهم
إلا بالازدراء .

وماله لا يفعل ذلك وإسرافه على نفسه في اللهو لا يقصر به عن
إتقان الدرس والتفوق على أترابه فيه . وما الذي يمنعه أن يعطى نفسه
من لذة العقل أعظم حظ ممكن ، وأن يعطى جسمه من لذة الحس أكبر
قسط مستطاع . ولماذا ينصف نفسه بما يتيح لها من لذة العلم
والمعرفة ، ويظلم جسمه بحرمانه لذة العبث والمجون ، وكذلك أنشأ
لنفسه فلسفة خاصة لاءمت حياته في أوربا ملائمة ما ولكنها لم تلائم
حياته في مصر . فللاوضاع الاجتماعية في مصر خصائصها التي تفرض
على الناس ، ولا سيما حين يشغلون المناصب ويرضون الرؤساء
ويرقون رقيا سريعا ، ألوانا من الوقار وضروبا من الاحتشام تضطربهم
إلى شيء من الجد والحرمان إن كانوا أصحاب عبث ومجون .

ومن أجل ذلك ضاق صاحبنا بالحياة أول الأمر ضيقا شديدا انتهى به
إلى سام شديد ، وكاد ينتهي به إلى يأس مظلم ، فقد رأى أبواب العلم
والمعرفة والدرس والبحث مفتحة له على مصاريعها . ورأى فرص
اللهو والعبث نادرة ووسائلهما محدودة وأبوابهما لا تكاد تفتح
إلا قليلا ، ولا تكاد تفتح إلا لتغلق ، فإذا هم أن يلج منها إلى ما يريد
اضطر إلى كثير من الحذر والاحتياط لأن الأوضاع الاجتماعية في ذلك
الوقت كانت تفرض الحذر والاحتياط ، وقد هم أن يرضى نفسه ويهمل
حسه وأن يمعن في لذة العلم ويزهد في لذة الاثم ، ولكنه لم يلبث أن

أنس من نفسه زهدا في المعرفة وانصرافا عن الدرس وفتورا عن البحث والدرس . ونظر فإذا هو يوشك أن يكون موظفا كغيره من الموظفين الذين يضطربون من حوله خاملين لا يضيقون بالخمود والخمول ، بل لا يشعرون بالخمود والخمول ، وإنما هم راضون عن أنفسهم وعن حظوظهم ، قد اطمأنوا إلى الحياة واطمأنت إليهم الحياة .

وكان صاحبنا أبعد الناس عن الرضى وأبغضهم للاطمئنان وأشدّهم طموحا إلى الرقى وطمعا في الامتياز ، فلم يكد يفكر ويقدر حتى استيقن أن فلسفته تلك قد خلقت له وأنه خلق لها وإنها وحدها هي التي تستطيع أن تبلغه ما يريد من علو المنزلة وارتفاع المكانة ومادام لا يرضى بالقليل ولا يقنع بما يقنع به عامة الموظفين ولا يكفيه أن يخطو إلى الامتياز خطوات متتدة معتدلة وإنما يريد أن يخطف الطريق خطفا وينهبها نهبا ويأتي بما لم تستطعه الأوائل كما يقول أبو العلاء ، فلا بد من أن يلجأ إلى فلسفته فيحيا بها ويحيالها .

وقد فعل فاعتزل الناس إلا قليلا ، جعل يلقاهم في الديوان حين يغدو على عمله في الديوان وجعل يلقاهم آخر النهار أن اضطرته الظروف إلى أن يلقاهم آخر النهار ، ولكنه جعل لا يكاد يستقبل الليل حتى يبتسم لظلمته المظلمة ابتساما مشرقا ، ويمد إليه يد الصديق ويفتح له قلب الخليل ويتحدث إليه كما يتحدث الحبيب إلى الحبيب . اتخذ الليل سميرا ونديما واتخذ الشراب سميرا ونديما واتخذ الكتاب سميرا ونديما أيضا فجعل كلما أقبل الليل خلا إليه وإلى كتابه وشرابه ففكر وقرأ وكتب ، واحتسى بين ذلك الكأس أثر الكأس حتى إذا تولى الليل إلا أقله وكادت توالى نجمه تتغور كما يقول ابن أبي ربيعة ، أعرض عن الشراب كارها وانصرف عن الكتاب محرجا يضطره إلى هذا الانصراف وذلك الأعراض أنه لا يستطيع أن يمسك الليل ولا أن يرد النهار ، وأن للقراءة والتفكير والشراب أثرا في العقل والجسم جميعا فلا بد من الراحة بعد التعب ومن النوم بعد السهاد الطويل . فهو إذن يسعى يسعى المقيد في الوحل كما يقول مسلم بن الوليد حتى يبلغ

سريره فيلقى نفسه عليه إلقاء ويستسلم للنوم استسلاما وما أكثر ما كان يقبل على السرير والنوم وهو يبغضهما أشد البغض ، ويمقتهما اقبح المقت ، ولكن لابد مما ليس منه بد . على أن النوم لا يلبث أن يطبق عليه أطباقا ويضمه ضما عنيفا ثقيلًا قصيرا أيضا .

فهو يستيقظ قبل أن يرتضع الضحى ويغدو على عمله كما تعرفه نائما أو كالنائم مضافى هذا الذهول الغريب . وقد طالت تجربته لهذا النوع من الحياة أو لهذين النوعين المختلفين من الحياة حتى الفهما ألفا متصلا ، وأصبح لا يستطيع أن يحيا إلا كما نراه نحن فى النهار ، كما يراه الله وقليل من الاخلاء فى الليل .

على أن حياته هذه المختلفة لم تلبث إلا قليلا حتى ظهرت آثارها فى رايه وعمله وسيرته مع الناس . فهو أذكى من أن يأمن السكر على أرائه وأعماله وأقواله فهو من أجل ذلك قد أساء الظن بنفسه فجعل لا يرى رايًا إلا أطل التفكير فيه والتقليب له قبل أن يعلنه ، يتهم فيه ليله هذا السكران ويخشى أن يدفعه إلى غير الصواب . وهو لا يقدم على عمل إلا بعد التردد المتصل وبعد الاحجام الطويل ، وهو لا يقول قولا إلا بعد أن يزنه كما يزن الصيرفى دنائيره بميزانه الحساس الدقيق . ثم جعل سوء ظنه بنفسه يقوى ويشد ويمتد حتى تناول الناس جميعا ، وإذا هو لا يصدقك إذا استمع إليك كما أنه لا يطمئن إلى ما تهدى إليه من قول أو عمل ، لأنه يتهم الناس جميعا فيما يقولون ويعملون كما يتهم نفسه فى كل ما يعمل ويقول ، ويريد سوء حظه أو حسن حظه لا أدرى أن تبسم له الأيام ويستجيب له الحظ فيرقى ويرقى ويسرع إليه الثراء ، وإذا هو يشعر كما يشعر غيره من الناس بأنه فى حاجة إلى أن يكون لنفسه أسرة ويؤسس لنفسه بيتا فيتخذ الزوج ولكنه لا ينعم بالزواج إلا أياما . فقد صرفته زوجته عن ندمائه . الليل والشراب والكتاب صرفته فأنصرف أول الأمر ثم لم يلبث أن أدركه السام فجعل يرد نفسه إلى ندمائه هؤلاء شيئا فشيئا . وهو كلما رد من نفسه جزءا إلى ندمائه حرم زوجته هذا الجزء من نفسه فسعد هو وشقيت هى حتى إذا عادت نفسه كلها إلى ندمائه نعم بسعادته الكاملة

وشقيت بحرمانها الكامل . وعاش الزوجان في دار واحدة ولكن كلا
منهما أصبح لصاحبه عدوا يظهر الحب ويضمّر البغض .
قلت لصاحبي حين بلغ هذا الموضع من حديثه أو تظن الأمور
تستقيم لهذا الكائن الغريب على هذا النحو الغريب من أنحاء الحياة ،
قال صاحبي : هيهات وكيف تستقيم الأمور لرجل يسامر ظلمة الليل التي
تعشى الأبصار وظلمة الخمر التي تغشى البصائر ، ألم أنبئك بأن حبه
لهذه الظلمات قد أفسد عليه حياته الروحية ودفعه إلى الإسراف في
سوء الظن بنفسه وبالناس ، ومتى استقامت الأمور لمن يقيم حياته
على الإسراف في سوء الظن بنفسه وبالناس .





طيف

القي كل واحد منهما إلى صاحبه نظرة دهشة
 واجمة ، فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التي
 تنشأ من المفاجأة والتي تلم بالآمن المطمئن حين
 يفجاء من الأمر مالم يكن ينتظر ، بل مالم يكن
 يخطر له ببال ، وكانت النظرة التي القاها كل
 منهما إلى صاحبه خاطفة أول الأمر ، ولكنها عادت
 فطالت واستقرت شيئاً ما ، ولزمت مع ذلك صمتاً ، ان صور شيئاً فانما
 يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر ، وعلى
 القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول .

وقد لبث كل منهما بإزاء صاحبه ذاهلاً غافلاً لا يعرف ماذا يصنع
 ولا يدري كيف يقول ، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجيء لصابتهما
 الحيرة وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ولتهدأ آخر الأمر إلى مخرج من هذه
 الحيرة بكلمة تنفجر عنها الشفافة ، أو ضحكة تنفجر لها الأفواه ،
 ولكنهما في موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان . ان يخرجاً من حيرتهما
 الصامتة إلى الضحك أو إلى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر القائم
 يضطرهما إلى شيء من الوقار لا يملكان معه ضحكا ان أرادا الضحك ،
 ولا كلاماً ان أرادا الكلام . وهما من أجل ذلك قد لبثا صامتين واجمين .
 يلتصقان مخرجاً من هذا الصمت . ومنصرفاً عن هذا الوجوم ،
 فلا يجدان الى شيء من ذلك سبيلاً . وقد أخذ كل واحد منهما يحدث
 نفسه بالانصراف عن هذا القبر يرى في هذا الانصراف فرجاً من هذا
 الحرج ، ومخرجاً من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل
 نفسه أيبدأ هو بالانصراف أم ينتظر حتى يضطر صاحبه إلى أن
 ينصرف ؟ وانهما لفي هذه الحيرة المتصلة ، وإذا خطر يسمع وقع من
 بعيد ، فيرفعان رأسيهما ويتظران من حيث يسمعان ، فإذا شخص يقبل

بطيئاً رزينا متكلفا للوقار ، ولا يكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه ، فهو صديقهما الثالث الذي تعود ان يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا ان يسمرؤا فى ناد من اندية القاهرة أول الليل ، وأن يتصرف معهما إلى حيث تعودوا أن ينصرفوا حين يوشك الليل أن ينتصف ، فيلقون فى بعض الأندية الخاصة من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ، حتى إذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أوى ثلاثتهم إلى تلك الدار التى تعودوا أن يأوؤا إليها فى آخر الليل ، وقد خلصت نفوسهم حظ اللهو ، وصفت ضمائرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون أو قل أن شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنا لك يكون شرب الكؤوس الأخيرة ، وهناك تنطلق الألسنة بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وهناك ترسل النفوس على سجيبتها فى غير احتياط ولا تحفظ ، وهناك يخلع الإنسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة على المتحضرين . ويصير إلى حال من الإنسانية المترفة الفاجرة التى تنحط بصاحبها ، أو ترتقى بصاحبها لا أدرى ، إلى حيوانية مترفة لا أدب فيها ولا وقار . حتى إذا انهزم الليل وولى مدبراً وانتصر الصبح وأقبل ظافراً ، انسلوا من هذه الدار لا تكاد أقدامهم تحملهم ولا تكاد اجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السنتهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر ، لانهم قد اسرفوا على انفسهم فى الاستمتاع بانسانيتهم المهذبة ، التى نعمت حتى افسدها النعيم وأثرت حتى أطغأها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متثاقلين متهاككين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على شىء من الجهد فى السيارة . يظهر الاكبار له ويضمر الاستهزاء به ، ثم يمضى بهذا المتاع الغالى الرخيص حتى ينتهى به إلى داره ، وحتى يرد منه إلى أهل الدار شيئاً عظيماً جداً فى أعين الناس حقيراً جداً فى عين نفسه وفى عين أهله ، وهو هذه البقية التى تركها الصبا واللهو والخلاعة والمجون .

فإذا تقدم النهار وارتفع الضحى ، وزالت الشمس أو كادت تزول ،
أفاقت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلقاها عمال الترف
أولئك الذين يجددون البالى ويحسّتون القبيح ويقيمون المتهمم
ويردون الشباب الى من فارقههم الشباب ، وما هى إلا ساعات حتى
تستأنف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال
ونضرة ، وفيها شوق مجدد إلى اللهو وفيها نزوع مستأنف إلى
المجون . ولا يكاد النهار يبلغ آخره حتى يخرج من هذه الدور أشخاص
فيهم كثير من المرح ، وكثير من الفتون وكثير جدا من الجهل والغرور .
وإذا هؤلاء الأشخاص يلتقون فى ناديهم الذى تعودوا أن يلتقوا
فيه ، فتكون الدعابة الفاترة وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح
السخيف ، ويكون الإقبال الفاتر على العبث الفاتر ، وكلما تقدم الليل
ازداد النشاط واشتد المرح وعظم الخطر من العريضة ، وأخذ كل جسم
من هذه الأجسام يصير ثوبا قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليها
الهوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الإثم الى غير حد وإذا
هم يستأنفون ليلا ، كليهم الماضى ويستقبلون حياة ناعمة يائسة
كحياتهم الماضية ، ويعودون إلى دورهم مع الصبح بقايا محطمة
لا تريد شيئا ، ولا تقدر على شئ ولا تصلح لشئ حتى يشتمل عليها
النوم فيرد إليها شيئا من قوة . ثم يتناولها عمال الترف الذين يرفعون
البالى ويجددون القديم حتى يردوا هذه البقايا البالية أشخاصا قادرة
مريدة . ولكنها لا تقدر إلا على الفساد ، ولا تريد إلا الإثم والمجون .
ولكنهم فى هذه المرة لم يلتقوا فى ناديهم ذاك الذى تعودوا ان
يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقوا فى مكان لم يكن ينتظر ان
يلتقوا فيه ، ولا أن يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو وليس هو
مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ، ومتى لها الناس
بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على إقامته إلا أسابيع
قليلة ؟ كيف ذهب هؤلاء النفر إلى هذا المكان الموحش فى قلب
الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذى لم تستقر فيه
صاحبته إلا منذ أمد قريب ؟ هذه هى المسألة التى القاهها كل واحد منهم

على نفسه فوجد الجواب عليها سهلا يسيرا ، وهم ان يفكر فيها ويستقصى التفكير ويتعمقه ، لولا انه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعمق ، وانما خلق للعبث ، والمجون الذى يفسد المروءة ويذهب بنضرة الأجسام والنفوس .

فلم يكذ ثالث القوم يرى صاحبيه حتى اخذه ما اخذهما من الدهش وعراه ماعراهما من الذهول ، وغشيه ماغشيتهما من الوجوم ، ولكنه لم يملك نفسه طويلا ، وانما هم ان يضحك ثم استحي من الغير فولى مدبرا وتبعه صاحباه ، حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم اللذين لا تزاور بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشور كما يقول أبو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم إلى هذا المكان ، ووقوفهم عند هذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد .

وقد جعل بعضهم يكذب بعضا فى شىء من الحيرة المتبلدة او من التبلد الخائر ، ولكنهم تواصفوا مارأوا ووزانوا بين ما سمعوا فلم يروا بدا من ان يصدق بعضهم بعضا ، ولم يروا بدا من ان يعترفوا بهذا الأمر الغريب العجيب الذى كان خليقا ان يملأ قلوبهم روعا ونفوسهم هولا ، لولا انهم تعودوا ان يجدوا فى الكاس ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفى عن نفوسهم كل هول . ولست أدري الام صارت امورهم جميعا ؟ ولكن اعلم ان احدهم على اقل تقدير قد ادركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة تشبه الخبل وألمت به علة لست أدري ايثبت لها ام يعجز عن ان يقاومها ويجد إلى البرء منها سبيلا .

وقد تسالنى أنت عن سعيهم إلى هذا المكان الموحش فى الصحراء ووقوفهم عند هذا القبر الذى لم يقم إلا منذ امد قريب ، والتقاءهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين اخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وتجبر على هذه القبور أشعة شاحبة ، ان صورت شيئا فانما تصور حزنا كأنه كان صدى يردده الجو لهذا البلى الذى كان يعمل جاهدا فيما احتوته هذه القبور .

ولست أكره ان أقص عليك مصدر هذا كله . ولكنى اعتقد انك ستدهش لما أقص إليك من حديث . فانت وما شئت من الشك ، وانت

وما أحببت من الثقة وانما الشيء الذى أطمئن إليه أنا كل الاطمئنان ،
هو انى انما أحدثك بشيء قد وقع وأصور لك فى هذا الحديث أمرا قد
كان ، وكل ما أتمنى هو ألا يعرض لك مثل ماعرض لهؤلاء الثفر الثلاثة
الذين أفسد عليهم أمرهم ما أغرقوا فيه من عبث ولهو وما تهالكوا عليه
من أثم ومجون .

كان هذا القبر الذى التقوا عنده مستقرا لغانية حسناء رائعة
الحسن ، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ساحرة الطرف ، تعودوا ان
يلقوها فى تلك الدار التى كانوا يأوون إليها من آخر الليل ويستنفدون
فيها مابقى لهم من قدرة على المجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء
تعدل بينهم فيما تهدي إليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقتها واناقتها
ولباقتها ، ومن هذا التودد الذى يغرى ويطمع حتى يخيل إلى المرء أنه
مشرف على الغاية ، ومنته إلى الأمد ، وبالع مايريد ، ثم هو لاينتهى به
مع ذلك إلا إلى اليأس المهلك ، والقنوط الذى يملأ القلوب لوعة
وعذابا ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل .
ومنيتى حتى إذا ما ملكتنى بقول يحل العصم سهل الإبطح
تناءيت عنى حين لالى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
ولكنهم كانوا أجهل جهلا ، وأحمق حمقا ، وأفرغ أفئدة ، واسخف
عقولا ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئا يشبه الشعر . انما كانوا
اصحاب لذة غليظة جافية يشقون ليتنعموا . وينعمون ليشقوا ،
ويألمون ليلذوا ، ويلذون ليألموا دون أن يوازنوا بين شقاء ونعيم ،
أو بين لذة وآلم ، قد دفعوا إلى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم
مندفعون إلى الحياة لا يفكرون فى نعيم ولا بؤس . دفعهم إلى هذه
الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا فى كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم
احلاما راجحة ولا بصائر نافذة ، ولا قلوبا قادرة على ان ترتفع عن
اللذات المادية الآثمة والشهوات المندفعة الجامحة .

فكانوا إذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليات اللهو
ورفيقات العبث والمجون يجدون فى هذا اللقاء حبا وبغضاء ، ورضى
وسخطا وانجاحا واخفاقا . ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعا بهذه

الفتاة اتصالا شديدا وتعلقت قلوبهم بها تعلقا عنيفا . واشتدت آمالهم فيها وعظم ياسهم منها حتى أخذ بعضهم ينفس على بعض ما يصدر عنها من لفظ ولحظ وإشارة . وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدوا . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون لا يزيدهم الاجتماع إلا تنافسا وتباعدا ولا يزيدهم الافتراق إلا حرصا على التدانى وتكلفا باللقاء .

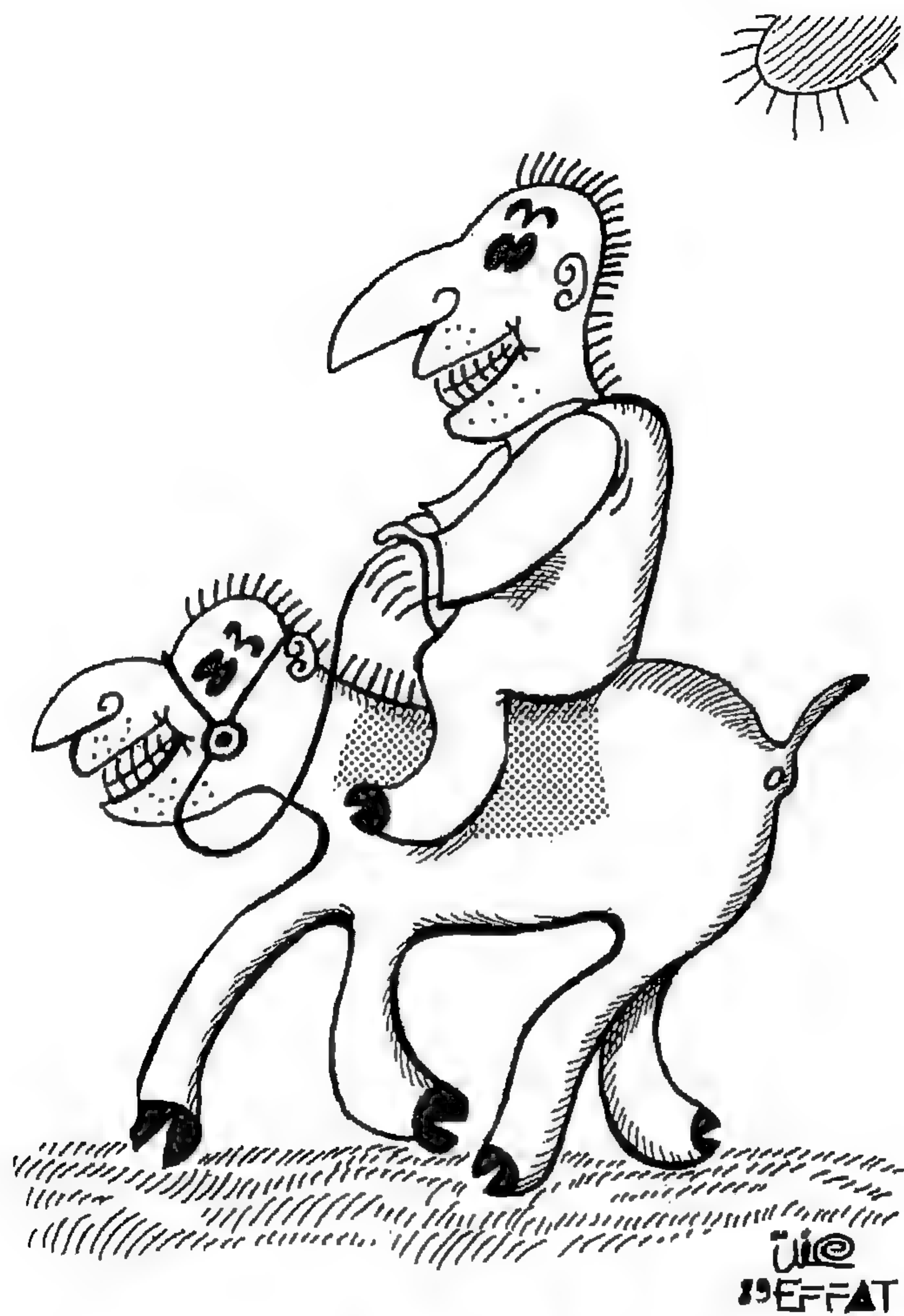
وقد أخذ كل منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم انها تؤثر فلانا من دونه ، ويشدد حقه على فلان ومكره به ، وكيده له ، حتى كاد الأمر ينتهى بهم إلى أعظم الشر . ولكن الأيام أراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير ، لأنها اختلطت من بينهم هذه الغادة الحسناء فى حادثة من هذه الحوادث التى تنقل الناس من الدار الأولى إلى الدار الآخرة فى طرفة عين . فاجتمعت قلوبهم على الحزن والتكل وحزن هؤلاء وأمثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هى إلا أيام حتى يستأنفوا حياتهم كما ألفوها عابثة ماجنة وسخيفة فارغة .

ولكن أحدهم يفيق من نومه مروعا ، مفزعا ، شديد الذهول فقد رأى طيف هذه الغادة الحسناء يلم به فى اثناء نومه الثقيل فيزود عنه النوم ويرده إلى يقظة شديدة . وإذا هو ينظر فيرى صاحبه كما تعود أن يراها فاتنة ساحرة تدنو منه وتتلطف له وتتودد إليه ، وتقول له فى صوتها العذب الذى يسحر القلوب : ما كنت أحسب انك ستتركنى حيث أنا وحيدة مستوحشة لاتهدى الى زيارة ولا تحدث بى عهدا ، ما أسرع ما نسيتنى وانى على ذلك لم أنسك ، ولا يمكن ان أنساك . ألمم بدارى قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه وينظر فلا يرى شيئا . ويتسمع فلا يسمع شيئا . وينهض فيستأنف حياته كما تعود أن يستأنفها كل يوم لا يلقى بالا إلى ما رأى ولا يلقى بالا إلى ما سمع ، فإذا كان الغد جاء الطيف كما جاء أمس وتحدث إليه بمثل ماتحدث به أمس . وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة ، حتى لم يشك فى ان من الحق عليه ان يلم بهذا القبر وأن يهدى إليه تحيته فى طاقة من الزهر . وقد فعل ، فلم يكذب القبر حتى رأى صاحبه ولم يكذب يقوم على القبر مع

صاحبه حتى أقبل صاحبيهما الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص
أحدهم على صاحبه ما رأى وما سمع . فإذا كل واحد منهما قد رأى مثل
ما رأى ، وسمع مثل ما سمع ، وأبطأ مثل ما أبطأ ، ثم أقبل على القبر
كما أقبل عليه يحمل إليه التحية وطاقة من الزهر .

أتراها أرادت أن تستيقى بينهم المناقسة والخصام بعد موتها ، وإن
تضطرهم إلى أن يحفظوا لها من الود مثل ما كانوا يظهرون لها قبل أن
تموت ؟ أم تراها أضغاث أحلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفر الثلاثة .
ولكن كيف يتفق أن يلم الطيف بهم في يوم واحد ويتراءى لهم في
صورة واحدة ، ويلقى إليهم حديثاً واحداً أو يضرب لهم موعداً واحداً .
قلت لصاحبي حين انتهى من حديثه إلى هذه الأسئلة ، لا أدري
ولا أستطيع أن أفتح عليك ، فسل من شئت من الجامعيين الذين
يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء .





أم خفيف

لاتخدعى عنه ياسيدتى انك تريته مكينا ركيناً
ورزيناً رصيناً يسعنى هادئاً إذا سعى ويمشى
مطمئناً إذا مشى ، ولكنك لم تريه حين يأخذه
المرح ويستخفه النشاط إذا خرج للرياضة فى
الصحراء مصباحاً أو ممسحاً . ولو قد رأيته إذ ذاك
لعلمت انه يحسن الجرى ويجيد العدو ويتقن
الوثوب فى الهواء والتلوى فى الفضاء ، ولخيل اليك ان جسمه الضخم
العريض القوى المتين لم يركب كما ركبت أجسام الناس ، وانما وصلت
اجزأؤه بلوالب تمتد ان أراد لها امتداداً ، أو تنقبض ان أراد لها
انقباضاً ، وانك تريته معتدل الحركة مقتصداً فيها ، ان حرك رأسه كأنما
شد عنقه من بين كتفيه بأمراس الكتان إلى صم الجندل كما يقول
الشاعر القديم . بل هو أقدر على أكثر من ذلك فهو مالك لاجزاء وجهه
يحرك منها ما يشاء حين يشاء ويسكن منها ما يشاء حين يشاء ويحركها
كلها أحياناً ، إذا أراد أن يسحر ويبهر أو أن يرهب ويخيف ولو رأيته
حين يستخفه الطرب ويستهو به نعيم الحياة لرأيت رجلاً لا يملك من أمر
نفسه شيئاً ، وانما هو حركة متصلة مضطربة . لاحظ لها من وقار
ولانصيب لها من اعتدال ، كأنما فقدت هذه القوة الإرادية التى تحرك
الأجسام بمقدار وتسكنها بمقدار وتلائم بين عواطف القلب وحركات
الجسم ملائمة الذين لا تتسلط عليهم الغرائز وانما تدبر أمرهم العقول ؛
وانك تسمعينه يتحدث فإذا صوت هادئ مترن ولفظ مطمئن متئد ،
وحكم يظهر فيه القصد وتشيع فيه الاستقامة ويأخذه الاعتدال من
جميع أقطاره ، ولو قد سمعته حين يثيره الغضب أو حين يزدهيه
الخوف ، أو حين يغلبه الرضى على أمره ، لعرفت كيف يرتفع الصوت
حتى يصم الأذان وكيف يضطرب اللفظ حتى لا يستقيم تأليفه على نحو

من أنحاء الكلام المألوف ، وكيف يختلط الحكم حتى لاتدركه العقول ولاتسيغه القلوب ، وانك ترين عليه زينة تاخذ الابصار وشارة تستهوى العقول .

ولو رايت حين يتخفف ولايتكلف ، لرايت الاهمال الذى تقتحمه العيون والابتذال الذى تزور عنه النفوس ، وانما هي حياة الناس ياسيدتى تقوم على التكلف اكثر مما تقوم على الاسماح وتجري على الرياء اكثر مما تجرى على الإخلاص ، وتمضى على الكذب اكثر مما تمضى على الصدق ، وتعطى من الناس صوراً ليس بينها وبين حقائقهم سبب ، وتردد من اصوات الناس اصداً ليس بينها وبين نفوسهم صلة ، قد جرى فيها الخداع كما يجرى الماء فى الغصن الرطب ، وسرى فيها النفاق كما تسرى النار فى الحطب الجزل ، انك تريه ياسيدتى يذهب ويجيء فترضين لأنه إنما يذهب ويجيء فى ثوبين خلع احدهما على نفسه وخلق الآخر منهما على جسمه . وهو كغيره من الناس يلبس هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نفسه للمقاء نظرائه ، ويخلع هذين الثوبين حين يريد أن يفارق نظراءه ليخلو لنفسه . وصدقينى ياسيدتى انى لم أخطىء حين شبهته منذ حين بالأوزة التى تعبت فى مجتمع من الماء ، انك تريها من بعيد فيعجبك منظرها تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها فى الماء مقبلة مدبرة وخافية ظاهرة . وارتفاعها فى الجو طائفة مقاربة فى الطيران تخفق بجناحيها خفقا لا يخلو من ظرف وتبعث صيحات تؤذى الأذن ولكنها لا تخلو من فرح ومرح ، وقد يروك شكلها حين تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها ورفعت عنقها الطويل براسها الخفيف وعرضت للضوء والهواء صدرها الجميل . كل هذا يعجبك ويخلبك ، وقد يروك ويروك فتسعين إلى مجتمع الماء هادئة مطمئنة ، تودين لو استطعت ان تبلغى الشاطئ ، وتقفى من الأوزة غير بعيد وتديرى بيتك وبينها بعض الحديث . ولكنك لاتلبثين ان تذكرى ان حماقة الأوز قد ضربت بها الأمثال منذ العصور القديمة فى غير أمة من الأمم وفى غير لغة من اللغات . وإذا أنت تلقين على الأوزة الجميلة نظرة طويلة فيها كثير من

حزن ، وفيها كثير من أشفاق ، وفيها كثير من ازدراء ، لأن طبيعتنا تنبو عن هذا التناقض بين الظواهر التي تخيل أشياء كثيرة والدخائل التي لا تحقق شيئاً . وليس على صاحبنا بأس من أن يشبه الأوزة في شكله وعقله ، لأنه لم يخلق نفسه ، ولم يلائم بين هذا الجسم الثقيل والعقل الخفيف ، وإنما هي حكمة الله التي نفهم أيسرها أحياناً ونعجز عن فهم أعظمها في أكثر الأحيان .

وقد عرفت صاحبنا معرفة دقيقة متصلة منذ أيام الطفولة والصبي ، وفي أيام الشباب والكهولة ، واستطعت أن أقطع بأن كل شيء من حوله كان يهيئه ليكون أوزة ناطقة فقد نشأ في أسرة موسرة من أسر الريف . وكان عطف أبويه عليه شديداً . فقد كانا يرفقان به مصباحاً وممسياً ، ويتعهدانه بالعطف واللفظ أثناء النهار وزلفاً من الليل ، وكانت أمه ترامه وتعطف عليه عطفًا خاصاً كما تعرف الأم الجاهلة الغافلة كيف ترام ابنها وتعطف عليه .

وكان أخص مظاهر حبها له وبرها به عنايتها بطعامه فقد كانت تصبحه بخير ما يصبح به أبناء الموسرين في القرى من هذه الألوان التي تلذ الأثواء وتملأ البطون وتشيع في الأجسام ضخامة وغلظاً . ثم كان لا يعود إليها من لعبه أو من كتابه أو من مدرسته إلا وجد عندها طعاماً تلقيه في فمه أو تدسه في جيبه أو تضعه في يده . فنشأ شرها متهاكاً على الطعام ، وانفق صباه وشبابه يعلف في أسرته كما يعلف الأوز في تلك البيئات التي تتخذ تنمية الأوز تجارة ومكسباً .

وبمقدار ما كانت أسرته تعنى بجسمه فتسرف عليه في المطعم وتتألق له في الملبس ، كانت هذه الأسرة ترفق به أشد الرفق فيما يتصل بالدرس من قريب أو بعيد فلم تكن تشق عليه في الملاحظة إذا عاد من المدرسة ، ولعلها كانت تضطره إلى الاعراض على القراءة والمذاكرة ، فقد كانت تخاف عليه من أيسر الجهد وتكره له الانحناء على الكتاب وتشفق على عينيه من ضوء المصباح . وكثيراً ما تقدم أبوه إلى معلمه في الكتاب وإلى أساتذته في المدرسة في ألا يكلفوه من الدرس شططاً . فهو لا يهياً ليتخذ من العلم صناعة ولا من المدرسة

وسيلة الى كسب الحياة . وانما هو يذهب إلى المدرسة كما يذهب إليها
أترابه من أبناء الاسر ليتعلم فيها مايرتفع به عن الجهل وما يميزه من
أهل القرية التي يعيش فيها . ولكن الصبي كان يحب أن يتعلم لارغبة
في العلم أو حرصا عليه ولكن عنادا لا يويه هذين اللذين كانا يقتبران
عليه في الدرس ويسرفان عليه في الطعام والشراب . فقد سار الصبي
في درسه سيرا قصيرا فلم يكن متفوقا ، ولم يكن شديد الغباء ، وإنما
كان شيئا بين ذلك حتى إذا أتم دراسته الثانوية رأى الحكومة تختار
المتفوقين من اترابه فترسلهم إلى أوروبا ليتموا الدرس ويعودوا بعد
ذلك ليشغلوا مناصب الدولة ويختلفوا إلى المكاتب في الدواوين .
ورأى بعض الأسر الغنية ترسل المقصرين من ابنائها عن نيل
الشهادات المصرية إلى أوروبا لينالوا الشهادات الأوروبية . ونظرفإذا
اترا به الذين كانوا يتفوقون عليه والذين كانوا لا يبلغون منزلته
يسافرون إلى أوروبا . فلم لا يسافر كما يسافرون ، ولم لا يعبر البحر كما
يعبرونه ؟ وليسوا أكثر منه مالا ولا أبرع منه جمالا ولا أحسن منه شارة
ولا أجمل منه زيا ولا أرقى منه ذوقا في اختيار أدوات الزينة التي
يتجمل بها الشبان المترفون . ثم هو يلوى لسانه بالرطانة الأجنبية كما
يلوون بها السنتهم ثم هو يحسن التصرف في أشياء لا يحسنون
التصرف فيها . وإذن فلم يتاح لهم السفر ويقضى عليه أن يكون من
المتخلفين ولم يجد مشقة في أن يظفر من أسرته بالإذن له في هذا
السفر الطويل . فقد مانعت الأم وبكت وشكت ولكن الأب أجاب ابنه إلى
ما أراد راضيا عنه ، مغتبطا به ، فقد كان يحب ابنه أشد الحب ويعجب
به أشد الإعجاب ويرى في سفره إلى بلاد الانجليز فخرا أي فخر
وامتيازًا أي امتياز . وقد ذهب الفتى إلى بلاد الانجليز وأقام فيها
ما شاء الله أن يقيم وعاد منها لم يتعلم شيئا إلا التأنق والتحذق
والبراعة في لى اللسان حين يتكلم الإنجليزية والعربية جميعا .
والافتنان في ارتضاع البيبة كما يرتضع الطفل ثدي أمه .
عاد من بلاد الانجليز لم يتعلم غير هذا شيئا وهو واثق مع ذلك أنه
قد تعلم كل شيء . وقد اتيح له من ظروف الحياة المصرية ومن جاء

أبيه ما وصل أسبابه بأسباب الحكومة . فعمل في ديوانه مترفا اشد الترف ، فارغا اشد الفراغ ، مشغولا بصغائر الأمور مصروفا عن عظامها .

ثم كانت الحركة الوطنية واضطراب السياسية واختصاص الأحزاب وانقسام الناس بين هذه الأحزاب مؤيدين ومعارضين ومنتفعين من المعارضة والتأييد . ومنذ ذلك الوقت تولت الظروف الارتقاء بصاحبنا من منصب إلى منصب ، ومن منزلة إلى منزلة ، حتى هبى له من المكانة ما تعلمين . واغرب شيء فيه ماترين من اجترائه على التحدث في كل شيء والعجز عن أن يقول شيئا ، ومن براعته في النزول بعظام الأمور وجسام الشئون إلى حيث تصبح ضئيلة يسيرة مبتذلة ، يرتفع عن الحديث فيها من اتاح الله له حظا من معرفة أو نصيبا من امتياز ، وهو على ذلك منتفخ منتفش ، يرى نفسه عظيما ، ويراه كثير من الناس عظيما ، فإذا حققناه لم نجد وراء هذه العظمة شيئا لأنها عظمة منحولة مدخولة لاتعتمد على شيء من شخص صاحبها بقدر ما تعتمد على الباطل والغرور . وقد تسألين كيف ارتقت به هذه العظمة الكاذبة من درجة إلى درجة ، ومن مكانة إلى مكانة ، ولكنى أرجو أن تكونى أقل سذاجة من هذا ياسيدتى . فليس ينبغي أن تسألى عن الضعفاء والعاجزين كيف يرتفعون . فذلك ملائم لطبيعة الأشياء ، وانما ينبغي أن تسألى عن الأكفاء كيف يثبتون في مواضعهم وكيف يتاح لبعضهم أن يرقى إلى شيء من امتياز المنصب وارتفاع المكانة فذلك هو المخالف لطبيعة الأشياء ، المبين لمنطق الدنيا ، كما يقول كاتب أديب من أصدقائنا .

والشيء المحقق هو انى لم ار صاحبنا قط مقدما على شيء أو محجبا عن شيء ، أو مجادلا لخصم أو مناظرا لصديق إلا هممت أن أقول له ما قال ابن شهيد لاورته تلك الاندلسية في تلك القصة الظريفة التي جرت بينه وبين حمير الجن وبغالها :

يا أم خفيف ، بالذى جعل غذاك ماء ، وحشا رأسك هواء ، ألا إيما أفضل : الأدب أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قال ابن شهيد : هل تعرفين

فى الخلائق احمق من أوزة ، ودعيتى من مثلهم فى الحبارى ؟ قالت
لا . قال ابن شهيد : فتطلبى عقل التجربة إذ لاسبيل لك إلى عقل
الطبيعة ، فإذا أحرزت منه تصيبا ، ويؤت منه بحظ فحينئذ ناظرى فى
الأدب .

قالت السيدة متصاحكة : ليكن صاحبنا أوزة أو دجاجة أو ماشئت
من ذوات الأجنحة والريش ، ولكن حدثنى عن هذا البدع الذى أخذت
فيه منذ حين . فقد جعلت لا أسالك عن أحد إلا ضربت له من الحيوان
مثلا . قلت وأى بدع فى ذلك ياسيدتى انما هو فن قديم من فنون الأدب .
أليس العرب قد شبهوا الإنسان بالحيوان منذ أول الدهر ! أليس الله عز
وجل قد شبه بعض الناس بالكلب الذى أن تحمل عليه يلهث أو تتركه
يلهث ، أليس الله عز وجل قد ضرب الحمار الذى تحمل عليه الأسفار
مثلا للذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها . أو لست قد حدثتك انفا
بقصة ابن شهيد مع أوزته تلك الأندلسية ، حين حاورها فى روضة من
رياض الجن بمحضر من زهير بن نمير وبمشهد من الحمير والبغال التى
كانت تنشده أشعارها . فما تنكرين من ذلك ، والله لم يخلق الأشياء عبثا
وانما جعل فيها لنا منافع ، ودعانا إلى أن نعتبر بكل ما خلق من الحى
والميت وأن نلتهمس فيه الموعظة التى تبصر القلوب والحكمة التى
تهدى العقول .

قالت السيدة وقد ثابت الى الجد وكانت أديبة أريبة تحفظ الحديث
وتقرأ القرآن هذا حق ، واقرا ان شئت قول الله عز وجل فى سورة
النحل : ﴿ والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها
جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا
بالفيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير
لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو
شاء لهداكم أجمعين ﴾ .





الفانيات

- من أين أقبلت يا ابنتى ! .
- من حيث لاتبلغ الظنون ..
- ماذا تريدین يا ابنتى ؟
- أريد مالا تقدرון ..
- كيف تقولین يا ابنتى ..
- أقول ما لاتصدقون !

— اسرفت فى الرمز يا ابنتى .

— بل مالکم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحاوره ، وينكر الشيخ نفسه ولا شكوك تساوره ، فقد رأى شخصها الجميل ، تظله هذه الغصون ، ولم يزل صوتها الضئيل ، يثير فى نفسه الشجون . وكانت الشمس قد تولت ، كالأمل الخائب الكذوب ، وظلمة الليل قد اظلت ، كاليأس اذ يغمر القلوب .

وقد لبث الشيخ مكانه قائما واجما ، يرفع رأسه إلى السماء حيناً ، ويخفض رأسه إلى الأرض حيناً آخر ، ويقلب طرفه فى الفضاء بين ذلك ، يلتمس هذه الفتاة الأنيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقدر المعتدل . هذه التى بدت له رائعة بارعة على أنها لم تتخذ زينة ولا حلياً ، ولم تتخذ من الثياب ما تعودت الفتيات الحسان اتخاذه ، وإنما بدت له ساحرة باهرة ، تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، على ما كان يستر جسمها الغض البض من ثوب هو إلى السذاجة القروية أدنى منه إلى تكلف المدن ، وهو إلى البلى أدنى منه إلى الجدة . فلما رآها انكرها ، ثم دار بينه وبينها هذا الحوار الذى ابتدئ به هذا الحديث والذى لم يفهم منه شيئاً ، والذى كان يريد ان يمضى فيه حتى يعلم من الفتاة علمها ويظهر على جليلة أمرها ولكنه ينظر

فلا يراها ، ويدعو فلا يسمعها ، ويبحث فلا يجدها فيلبيث في مكانه حائرا مرتاعا ، يكاد يكذب عينه فيما رأت وأذنه فيما سمعت لولا أن صورتها تلح على نفسه فتملأها جمالا وسحرا ، ولولا أن صوتها يلح على قلبه فيشيع فيه طربا حزينا .

وقد طال وقوف الشيخ وطالت حيرته وأخذت الظلمة تغمر الأشياء من حوله ، وكان خليقا أن ينسى نفسه في موقفه هذا الغريب ، لولا أنه سمع ذلك الصوت الضئيل العذب يقول له : أسرع أيها الشيخ إلى صلاتك فقد أوشكت أن تفوتك وأوشك المؤذن أن يدعو إلى العشاء الثانية . لا تبحث عني فلن تراني من ليلتك هذه .

ولم يكد الشيخ يسمع هذا الصوت حتى ثاب إلى نفسه وثابت نفسه إليه ، وذكر أنه قطع حديثه مع الباشا فجأة ، وانصرف عنه عجلا ليشهد صلاة المغرب والعشاء مع جماعة الناس كما تعود أن يشهدها في مسجد القرية الذي يقوم في طرف من اطرافها غير بعيد من القصر ، وأنه ليسعى في طريقه إلى المسجد وإذا هذه الفتاة تتراءى له من بين هذه الشجرات التي تقوم عند آخر الحديقة وتمد اغصانها متكاتفه مختلطة كأنها تريد أن تتخذ منها للقصر ستارا جميلا صفيقا ، وقد أسرع الشيخ إلى صلاته وهو يحدث نفسه بأنه سيؤديها منفردا وسيؤدي العشاء الثانية مع جماعة الناس ، ولكن الصوت الجميل الضئيل كان يتبعه قائلا له لا تذكرني لاحد ، ولا تتحدث عني إلى أحد فإنك ان فعلت لم تجن من ذلك إلا شرا . ولا يستطيع الشيخ أن ينكر أن ظهور هذه الفتاة له واحتجابها عنه وتحديثها إليه وتشجيعها له ، كل ذلك قد ملأ قلبه فرقا ، لم يسكت عنه إلا حين دخل المسجد واستقبل القبلة مقيما للصلاة ، ولو أطاع الشيخ نفسه لتحدث إلى أصحابه بعد أن فرغوا من صلاة العشاء الأخيرة بما رأى وما سمع ، ولكنه كان كلما هم بذلك أو بشيء منه رد نفسه عنه ردا عنيفا مخافة أن يظن الناس به الظنون من جهة ومخافة هذا النذير الذي القته الفتاة إليه من جهة أخرى .

وقد راح الشيخ إلى أهله حين تقدم الليل ، وكانت نفسه تنازعه أن يتحدث إليهم ببعض ما رأى وما سمع ولكنه ردها إلى الحزم وحملها على الصمت ، مخافة أن يظن أهله به الظنون وأن يتحقق هذا النذير الذى القته إليه الفتاة فاستقبل الليل كارها لهدوئه ، وطلب النوم جاها فلم يظفر به إلا بعد انتظار طويل ولم ينعم به بريئا من الأحلام المزعجة والأطياف المروعة ، ولم يعرف الهدوء إلا حين استقبل النهار المشرق واضطرب مع أهل القرية فيما تعود أن يضطرب معهم فيه من شئون الحياة . ولم يزر الباشا من يومه ذاك ، كأنه قدر أن هذه الفتاة ستعرض له بين تلك الشجرات مستظلة بتلك الغصون المتكاثفة في طرف الحديقة مما يلى القرية . وقد شهد صلاة العشاءين مع أصحابه واستقبل ليلة هادئة ، واستقبل نهارا مشرقا هادئا ، حتى إذا ارتفع الضحى ، سعى إلى القصر يريد أن يزور الباشا فى النهار الواضح المبصر ، لافى الأصيل الشاحب الذى يسعى إلى الإظلام أو يسعى إليه الإظلام ، والذى تعرض فيه الفتيات الحسان فى ظل الأغصان . ولكنه رأى الباشا مكتئبا مفرق النفس ، كان أمرا ذا بال يهمله ، ويصرفه عن إدارة الحديث مع جلسائه كما تعود أن يدير الأحاديث فى لباقة ورشاقته وذكائه الحاد . وكان الشيخ اثيرا عند الباشا ، محببا إلى نفسه ، مشيرا عليه فيما يعرض له من الأمر ، فلما رأى اكتئابه وابتئاس نفسه ، أطال المقام ولم ينصرف مع الناس حين انصرفوا . وانما استأنى وتريث ، حتى إذا خلا له وجه الباشا سألته مترفقا به عن هذا الأمر العارض الذى أهمه واضطره إلى ما هو فيه من هذا الحزن الكئيب .

قال الباشا وعلى ثغره ابتسامة شاحبة وفى صوته تكسر حزين ما أدرى أحدثك بهذا الحديث أم أطويه عنك ، فإنى أنكره أشد الإنكار ، وأكاد أخفيه على نفسى أشد الإخفاء . وقد هممت أن أسافر إلى القاهرة لأرى الطبيب ، ثم بدالى فدعوت الطبيب إلى زيارتى ، وإلى أن ينفق معى يومه إذا كان الغد ، والأمد بيننا وبين القاهرة غير بعيد ، واليوم يوم الخميس ، فليس على الطبيب بأس أن ينفق معنا يومه غدا .

قال الشيخ : فإنى لم أفهم عنك ولم أتبين هذه الصلة الغريبة بين ما يظهر عليك من حزن ، وبين دعوتك للطبيب إلى أن يتفق معك ساعات من نهار .

قال الباشا : ألم أقل لك انى أنكر نفسى وأخشى أن يكون قد ألم بى بعض العلة ، فقد رأيت أمس ما روعنى ، وسمعت أمس ما أخافنى ، وانى لاستحيى من نفسى حين أفكر فيما سمعت وما رأيت . وانى لاستحيى منك ان أحدثك بما سمعت وما رأيت .

قال الشيخ وهو مهتم يتكلف الابتسام ، وصوته مضطرب يتكلف الثبات : ماذا سمعت وماذا رأيت ؟ قال الباشا فى صوت يكاد يبين عن الجزع : سمعت صوتا لم أسمع قط أعذب منه .. ورأيت شخصا لم أر قط أجمل منه . ثم انقطع عنى الصوت ، واحتجب عنى الشخص وترك فى نفسى ما ترى من حزن واكتئاب . وقد ذكر الشيخ ماراى ، وذكر ما سمع ، وهم أن يتحدث إلى الباشا بمثل ما تحدث به الباشا إليه ، ولكنه خاف النذير فأثر الصمت . ومضى الباشا فى حديثه فقال : كان ذلك حين أذنت الشمس بالغروب وحين أخذت ظلمة الليل تغزو الفضاء ، وقد كنت أسعى فى هذه الحديقة فما راعنى إلا فتاة بارعة الجمال ، رائعة القوام ، تنظر إلى بطرف نافذ كأنه السهم .. فأسالها من هى ومن أين أقبلت ! وإلى أين تريد وماذا تبتغى ؟ فلا أسمع منها إلا أجوبة غامضة لا أفهم منها شيئا ، فهى مقبلة من حيث لا أظن ، وقاصدة إلى حيث لا أقدر ، ومريدة مالا استطيع ، وقائلة مالا أفهم . وأريد أن استوضحها ، وإذا شخصها يستخفى منى ، وإذا صوتها ينأى عنى شيئا فشيئا وهو يقول لا بد مما ليس منه بد ، خير لك أن تقدم على الأمر طائعا راضيا من أن تقدم عليه كارها مضطرا . وقد سمعت هذه الكلمات الأخيرة يلقيها إلى صوت غريب كأنه الصدى .

ولم يشك الشيخ حين سمع حديث الباشا فى أن صاحبه تلك التى عرضت له فى طرف من أطراف الحديقة هى التى عرضت لصاحب القصر ، وهى التى تحدثت إليه ، ولكنه على ذلك لم يفض إلى الباشا بذات نفسه وإنما قال له متصاحكا لو علمت أنك تسمع لى لطلبت إليك

أن تفعل كما أفعل ، وأن تقرأ أجزاء من القرآن في كل يوم تذكر الله بتلاوتها ، فإن ذكر الله يملأ القلوب أمنا واطمئنانا ويرد عن النفوس ما يروعها ويؤذيها من الخوف والريب ، وقد أحسنت إذ دعوت الطبيب وما أرى إلا أن مقدمه سينفعني فسأستشيره في بعض ما أجد من الضعف وأن كنت لا أنتظر منه خيرا كثيرا ، فإن هذا الضعف الذي أجده لا دواء له لأنه ضعف الشيخوخة والهزم .

وتنقل الرجلان في أحاديث كثيرة مختلفة أشد الاختلاف يسلي كل منهما بهذا التنقل نفسه وصاحبه عن هذه الصورة الملحة ، وهذا الصوت المتصل ، وهذا النذير الغامض الغريب . وقد حرص الشيخ على أن ينصرف عن القصر قبل أن يصلح العصر حتى لا يرى ذلك الشخص ، ولا يسمع ذلك الصوت ولكنه يقبل إلى المسجد حين يدعو المؤذن إلى صلاة المغرب ولا يكاد يبلغ الباب حتى يرى شخصين غريبين قد قام كل واحد منهما على جانب من جانبيه ، وينظر الشيخ في شيء من الروع إلى أحد هذين الشخصين ، فلا يشك في أنه يرى الفتاة التي رآها في طرف من أطراف الحديقة ، وينظر إلى الشخص الآخر فإذا هو صورة مطابقة للشخص الأول كأنما كل واحد من هذين الشخصين تمثال لصاحبه يطابقه أشد المطابقة ويصوره أدق التصوير ، ويرى الشيخ على ثغر كل من هذين الشخصين ابتسامة حازمة صارمة ولكن فيها عذوية تنفذ إلى قلبه فتملأه أمنا وروحا . وقد رفع الشيخ صوته حين رأى هذين الشخصين بتلاوة ما تيسر من القرآن ، ولكنه يسمع الصوتين يتلوان معه ما كان يتلو ويجد تلك العذوبة التي وجدها حين كانت الفتاة تتحدث إليه وتحاوره في ظل تلك الغصون ، فيسرع إلى المسجد مخافة الفتنة وينغمس في جماعة الناس ، وقد أشفق على نفسه من شر عظيم .

ولست في حاجة إلى أن أصور ماملأ قلب الشيخ من روع وروعة ، ومن خوف وأمن ، ومن يأس ورجاء ، فقد كان يحب أن يرى هذه الصورة ويشفق من رؤيتها ، وقد كان يرجو أن يسمع هذا الصوت ويخاف من سماعه ، وقد جعل يحيا حياة مضطربة بين هذه العواطف

المتناقضة . وأقبل الطبيب فسمع من الباشا وتحدث إليه وامتحنه ولكنه لم يغن عنه شيئا . وما كان الطبيب ليغنى عنهما ولا عن غيرهما شيئا ، فما هي إلا أيام حتى كثر هذا الشخص أو كثرت صور هذا الشخص في القرية وجعل كل واحد من أهل القرية يراه حين يغدو إلى عمله مع الفجر وحين يروح إلى أهله مع الأصيل .. وجعل كل واحد من أهل القرية يسمع منه ويتحدث إليه مصباحا وممسيا . ويرتاع لمنظره وصوته أول الأمر ، ثم يالف منظره ويطمئن إلى صوته ، ويشتاق إلى أن يراه بين الفجر والأصيل ، ويشتاق إلى أن يسمعه في كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

وقد جعل أهل القرية يتحدثون إذا التقوا عن هؤلاء الفتيات الحسان اللاتي يعرضن لهن في الغلس حين يطلق النهار سهمه المضىء فيشق به ظلمات الليل ، وفي الأصيل حين يطلق الليل سهمه المظلم فيبدد به ضوء النهار . وجعل أهل القرية يتحدثون عن هؤلاء الفتيات الحسان المطمعات المغريات اللاتي يبدون لهم ويدنون منهم ويدعونهم إليهن في شيء من الفتنة ولكنها فتنة نقية لا اثم فيها ولا حرج ، ولا لوم فيها ولا تثريب .

وجعل أهل القرية يسألون الشيخ عن هذا الحدث الغريب الذي ألم بقريتهم منذ حين فغير حياة الناس فيها تغيرا شديدا ، وأثار في قلوبهم أمالا لا حد لها ، وياسا لا حد له ، وغير رأى بعضهم في بعض ، وغير رأيهم جميعا في الباشا هذا الذي كانوا يؤمنون له ويدعون لسلطانه ويرون طاعته عليهم حقا . ويرون انهم ملك له كما أن أرضه ملك له .. إلا انهم يحيون والأرض لاتحيا ويرون انهم ملك له كما أن ماشيته ملك له ، إلا انهم يعقلون وينطقون والماشية لاتعقل ولاتنطق ، تغير رأيهم هذا في الباشا فأصبحوا يرونه واحدا منهم ، لايمتاز من بينهم بشيء ، فهو رجل من الرجال يذهب ويجيء ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتكلم بالصواب حيننا وبالخطأ أحيانا ، وإن فلم يستأثر من دونهم بهذا النعيم ! ولم يستطل عليهم بهذا السلطان ، ولم يسعد حتى تبطره السعادة ويشقون هم حتى يضطربهم الشقاء إلى اليأس والقنوط ، ولم

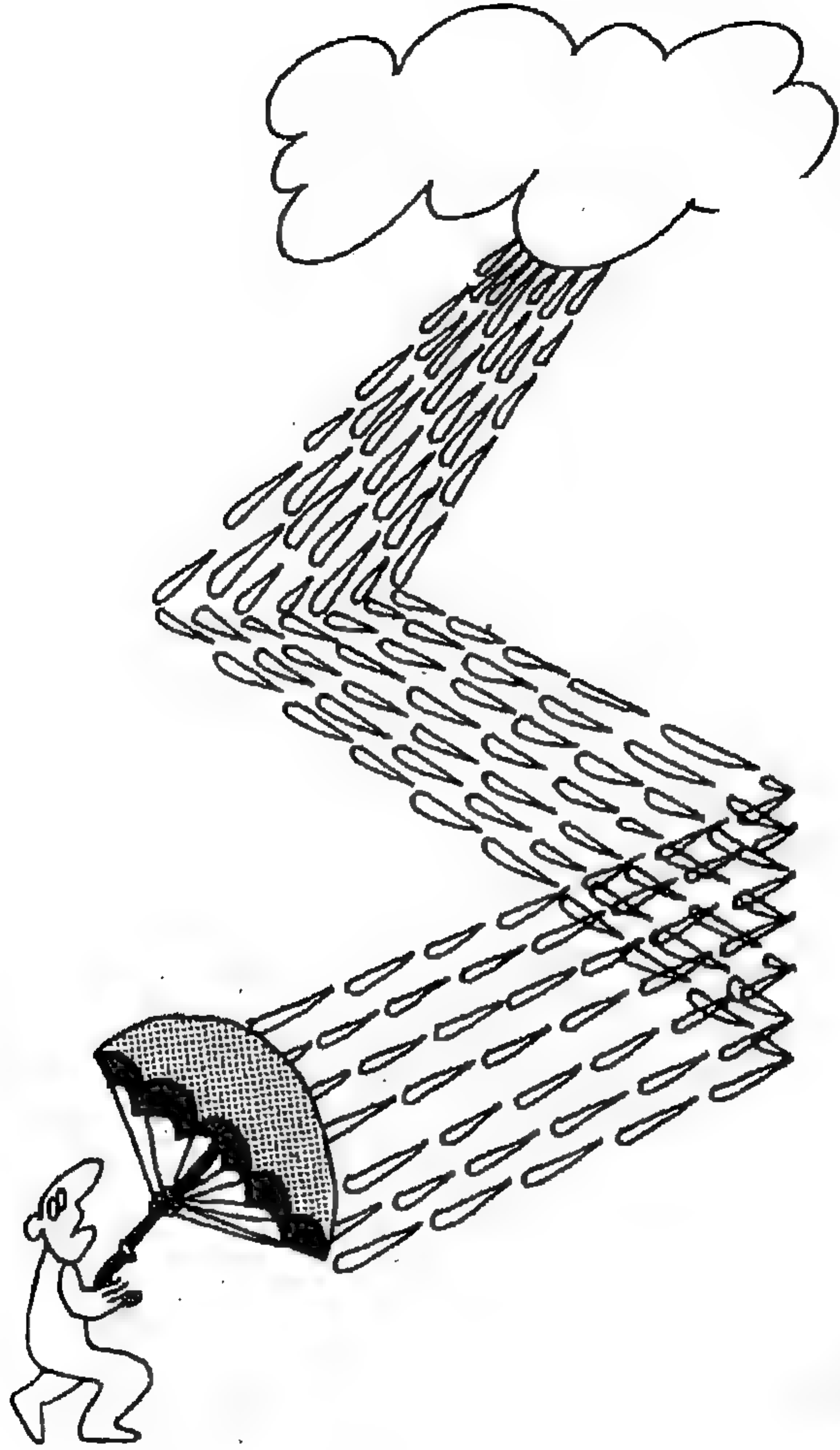
تبسم الحياة له حتى يضيق بهذا الإبتسام ، وتعبس الحياة لهم حتى يهلكهم هذا العبوس ، ولم يكسل هو حتى يضطره الكسل إلى المرض . ويعملون هم حتى يضطرهم العمل إلى الموت .

شاعت هذه الأحاديث بين أهل القرية فامتلأت بها هجالسهم حين يجتمع بعضهم إلى بعض وامتلأت بها بيوتهم حين يخلو كل منهم إلى أهله وذوى قرابته ، وارتقت إلى الباشا قصافته قلعا قد ملأ قلبه الخوف والاضطراب ، وإذا هو يؤثر أن يترك القرية إلى القاهرة ، ليتحدث عن محنته هذه في قريته إلى بعض أولى الراى من أصحابه ولا يكاد يبلغ القاهرة ويقضى بذات نفسه إلى بعض نظرائه حتى يسمع منه حديثا ليس أقل من حديثه خطرا ، ولا أيسر منه شيئا ، فاهل القرى كلهم يتحدث هذا الحديث ، وأهل المصانع كلهم يتحدث هذا الحديث ، والعاملون فى الدواوين والمصارف والشركات ، والعاملون فى الشوارع والطرق والمواصلات كلهم يتحدث هذا الحديث قد اختلط الأمر وعظم الشك ، وشاع فى النفوس أمل لاحد له ، وشاع فى النفوس يأس لاحد له ، وشاع فى الجو كله سحاب لايدرى عما ينجلي ، أعن أمن ورخاء ، أم عن بؤس وشقاء . وكان عدد السكان فى مصر ثمانية عشر من الملايين فأصبح عددهم ستة وثلاثين مليوناً ، لأن كل فرد من أفراد هؤلاء المصريين قد وكلت به فتاة حسناء حازمة صارمة باسمه تبعث ابتساماتها فى القلوب أملا مخيفا . وكره الباشا أن يعود إلى قريته لأنه كره فتاته تلك الحسناء فى حديقته تلك الغناء . ولكنه خلا إلى نفسه ذات يوم فى مكتبه المطل على النيل وأراد أن يأخذ فى بعض عمله وإذا هو يحس حركة فإذا التفت رأى فتاته الحسناء وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة وهى تقول فى صوتها ذاك الضئيل الجميل لابد مما ليس منه بد أقدم طائعا راضيا ، فذلك خير من أن تقدم كارها مضطرا .

وقد كتب الباشا إلى الشيخ يدعوهُ إلى القاهرة ليشاوره فى بعض ما يمكن أن يصنع ليرضى الساخط ، ويأمل القانط ، ويأمن الخائف ، ويعمل الكسل ، محبا للعمل لا زاهدا فيه . قال الباشا للشيخ حين خلا إليه : ألا تنبئنى عن هذا البلاء العظيم الذى نمتحن به فى هذه الأيام

الشداد . قال الشيخ مبتسما : لا تسلني أنا عن هذا البلاء وسل عنه فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتي ملأن علينا أرض مصر جمالا وأملا وخوفا واشفاقا . قال الباشا : ومن عسى ان تكون هؤلاء الفتيات ! قال الشيخ : لا أدري ولكني كلما سألت واحدة منهن عن اسمها رفعت كتفها وابتسمت عن ثغر جميل وقالت ساخرة : تريد ان تعرف اسمي فاسمى هو « العدالة الاجتماعية » ..





البرق الخاطف

أنكره ياسيدتي ان شئت أو اعرفيه . فكلا
الأمريين منك سائغ ، وكلا الأمريين منك مقبول ،
وان تنكره فقد أنكرت نعم شاعرها وشاعر
الحجاز عمر بن أبي ربيعة ، وأن تعرفه فقد
عرفت أسماء شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن
أبي ربيعة ، وأنت ياسيدتي أديبة أريية تذكرين
من غير شك ما تحدث به فتى قريش عن صاحبتيه حيث يقول :
ففى فائظرى أسماء هل تعرفينه أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن وعيشك أنساه إلى يوم أقبّر
فقلت نعم لاشك غير لونه سرى الليل يحى نضه والتهجر
لئن كان إياه فقد حال بعدنا عن العهد والإنسان قد يتغير
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى ليخضر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله سوى ما تفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرلة وريان ملفف الحداثق أخضر

فاى المذهبين تختارين ؟ مذهب نعم هذه التى أنكرت الشاعر
وجعلت تسأل عنه فى سحرية تمازجها العطف . أم مذهب أسماء التى
عرفته وجعلت تحدث عنه فى عطف يمازجه الاعجاب ؟ وإنى لمسرف
حين ألقى عليك هذه الأسئلة وأخبرك بين هذين المذهبين فانى
لم أسمع منك منذ ساعة إلا إنكار لصاحبنا هذا المسكين ونعيا عليه ،
تريئه كثير الكلام وقد كان كثير الصمت ، وتريئه كثير الحركة وقد كان
صاحب رزاة ووقار ، وتريئه مقصرا فى ذات الصديق وقد كان من أشد
الناس وفاء للصديق ، وتريئه مستكبرا مستعليا وقد كان متواضعا
غاليا فى التواضع وتريئه يقول غير الحق وقد كان لا يؤثر على الحق

شيئا ، وترينه مداورا مناورا وقد كان أبغض الناس للمداورة وأزهدهم في المناورة وأحرصهم على أن يسلك إلى ما يريد طريقا مستقيمة غير منحرفة ، ومستوية غير ملتوية ، وواضحة لا يحتاج سالكها إلى الهدى والاعلام . وترينه حذرا هيبا ومتحفظا محتاطا وقد كان جريئا مقداما ، لا يخاف شيئا ولا يخاف أحدا ولا يعدل عن الصراحة الجلية إلى الإشارة الغامضة أو التلميح الذي يلبس فيه الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالمحال .

وقد كنت تعرفين وجهه مشرقا صافى الإشراق مبتهجا نقى الابتهاج مبتسما حلو الابتسام ، فأصبحت ترين وجهه مظلمًا تمام الإظلام تغشاه بين حين وحين سحابة رقيقة ضئيلة من إشراق طارئ لا يثبت أن تتمحى آيته ويعفى الإظلام على آثاره وأصبحت ترين في عينيه حزنا ملحا حالكا يصور نفسا مكلومة حزينة كأنما يغمرها ندم متصل لا تكاد تخلص منه إلا لتعود إليه . وأصبحت ترين على ثغره ابتسامة تمر سريعة بين حين وحين تحاول أن تثبت فلا تستطيع . كأنما وكل بها من أعماق الضمير حرس يابون عليها أن تثبت أو تستقر . وقد ترين على ثغره ابتسامة تقيم فتطيل الإقامة ولكنها ابتسامة شفافاة لا تشف عن نفس مبتهجة أو قلب مطمئن أو ضمير راض وإنما تشف عن كآبة وسام وقلق ، هي ابتسامة مجلوبة قد تعلم صاحبنا أن يضعها على ثغره وإن ينزعها عنه كما يضع صاحب العمامة أو الطربوش عمامته أو طربوشه على رأسه . متى شاء وينزعهما متى شاء . ترين أشياء كثيرة تنكرينها لأنك لم تعهدينها من قبل وتلتمسين أشياء كثيرة فلا تجدينها وقد كنت لا ترين غيرها من قبل وأنت من أجل ذلك تنكرين فتسرفين في الإنكار وتلومين فتغرقين في اللوم . وليست إلى جانبك أسماء توضح لك الغامض وتجلو لك الخفى وتقص عليك من أمر صاحبنا ما تجهلين ، والإنسان قد يتغير كما يقول عمر بن أبي ربيعة . وما أكثر الأشياء التي تغير الناس فتحولهم عن العهد وتنقلهم من طور إلى طور وتمحو منهم خصالا كان الأصدقاء يعرفونها وبالفونها ويكلفون بها ، وتمحو مكانها خصالا أخرى ليس للأصدقاء بها عهد وليس من شأنها أن تحسن في

نفس الصديق . وقد نبت عين نعم عن عمر لأنها :
رأت رجلا جواب أرض تقاذفت به فلوأت فهو أشعث أغبر
قد أكثر السفر والح فيه يسرى فى الليل ويهجر فى النهار فأدركه
ما يدرك أمثاله من الجهد والشعث . وجعلت أسماء تبين ذلك لصاحبها
فى عطف وإعجاب . أما صاحبنا فلم يسر فى الليل ولم يهجر فى النهار
ولم يدركه ما يدرك المسافرين من الجهد والشعث ، وإنما أدركه شيء
آخر هو الذى تسالين عنه فلا تهتدين إليه . وكيف تعرفينه أو تهتدين
إليه وأنت مشغولة بحياته هذه الباعمة فى قصرِكَ هذا الأنيق ، ومن
حوله جنته هذه ذات الأشجار الباسقة والأغصان المتكاثفة وذات الزهر
النضر والعشب الجميل ومع ذلك فلصاحبنا قصة رائعة شائقة
لو عرفتُها لرحمته وعطفت عليه ، وله حديث رائع لو سمعته لمنحته
شيئا غير قليل من الرثاء والإشفاق وستسأليننى من غير شك أن أقص
عليك قصته وأنبئك بحديثه . فأنت كغيرك من السيدات تمتازين بهذه
الخصال التى تملأ القلوب لكن حبا ومنكن خوفا وبكن إعجابا . فيك
رحمة لا حد لها وفيك قسوة لا حد لها . وفيك رغبة فى الاستطلاع
لا تعرف لنفسها حدا تنتهى إليه ، ولست أرى بأسا من أن أقص عليك
القصص وأنبئك بالحديث . ولكنى أخشى ألا تصدقنى ما سألقى إليك من
قول .

فقصة صاحبنا غريبة حقا . لو أنها قصت على الناس فى الدهر
القديم لصدقوها ولاطمأنوا إليها ، لأن عقول الناس فى الدهر القديم
كانت نقية لم تكدرها الحضارة ، وكانت قوية لم يصفعها العلم . فأما
فى هذا العصر الذى نعيش فيه فقد كثرت الأعاجيب التى ترى وتسمع
وتحس حتى أصبح الناس لا يصدقون الأعاجيب التى تقص عليهم
إلا إذا رأوها وسمعوها أو أحسوها . وقد حاولت أن أرى أعجوبة
صاحبى بنفسى فلم أفلح ، وقد كررت المحاولة مرة ومرة منذ حدثنى
بقصته فلم أبلغ من ذلك شيئا . حاولت ذلك معه وحاولت ذلك منفردا فلم
أظفر إلا بالإخفاق إن كان الإخفاق شيئا يمكن أن يظفر به الناس ، وأنا
مع ذلك أصدق القصة ولا أنكرها ، لأن صاحبى هو الذى قصها على

ولانه لم يعودنى أن يحدثنى بغير الحق ، ولانه قص على قصته اثر خروجه منها وقبل أن تظهر عليه هذه الخصال التى تنكرينها ، ولان عقلى بعد هذا كله مستعد لتصديق مثل هذه القصص لانى عاشرت القدماء حتى اصبحت واحدا منهم . فعقلى نقى لم تكدرة الحضارة التى لا آخذ منها كما تعلمين إلا بمقدار ، وعقلى قوى لم يضعفه العلم الذى ليس لى منه كما تعلمين حظ قليل أو كثير .

وكان بدء ما ألم بصاحبى من الخطب انه خرج ذات يوم مع الصبح يلتمس الرياضة ويسلى عن نفسه بعض الهم . فترك المدينة وأمعن فى الصحراء يمضى أمامه هادئا مطمئنا ، مستمتعا بهذا الحر الهادى الذى تشعه الشمس حين تصحو وتصفو فى فصل الشتاء .. ولصاحبى عهد بالأدب القديم فقد جعل يدير فى نفسه بعض ما حفظ من شعر القدماء ذاك الذى يصور الصحراء وما فيها من وهاد ونجاد وما يضطرب فيها من حيوان وما يترقرق فى جوها من سراب . وقد مضى فى رياضته تلك وقتا لا يعرف أطال أم قصر ، لانه نسى نفسه . وامتزج بما حوله ولكنه تنبه فجأة وقد فقد حر الشمس ، وينظر فإذا سحب متكاثفة تاتى من الشمال بطيئة ثقيلة يزحم بعضها بعضا وقد هم أن يرجع ولكنه يرى برقاً يخطف ويسمع رعدا يقصف ثم لا يعرف من أمر نفسه شيئا ، وإنما هو شعور غريب غامض أشبه شىء بشعور النائم حين يداعبه حلم لذيذ . فهو يرى كأن هذا البرق الذى كان يخطف قد خطفه هو ، فرفعه فى الجو رفعا سريعا رشيقا حتى انتهى به إلى شىء يشبه أن يكون فراشا موطا وثيرا . وهو يحس كأن هذا الفراش يسعى به سعيا رقيقا ولكنه سريع يذكره بعض ما كان يجد حين كان النوم يداعبه وهو فى مضجعه من السفينة والجو صفو والبحر هادىء والسفينة تجرى فى يسر تعينها عليه ريح رخاء . ثم يحس كأن سريره ذاك الساعى فى الجو قد استقر على مكان ثابت مطمئن وكان صورا غريبة تشبه الناس ولا تشبههم قد حفت به فأجلسته وجعلت تتحدث إليه بلغة غريبة يفهم معانيها ولا يحقق الفاظها ولكنه يؤكد أنها ليست اللغة العربية التى يتكلمها عامة وقته وليست اللغة الفرنسية التى

يتكلمها بين حين وحين . وليست لغة من هذه اللغات التى يسمع الناس يتحدثونها من حوله فيفهمها قليلا أو كثيرا ، وإنما هى لغة غريبة حقا ان أمكن أن تشبه بشيء فقد تشبه بما يأتلف من هفيف النسيم وحفيف الأغصان وخرير الماء وغناء الطير ، وهو مع ذلك يفهم هذه اللغة حق الفهم لا يجد فى ذلك مشقة ولا عناء كأنما تبلغ ألفاظها الغريبة قلبه وعقله ، فتستقر فيهما واضحة جلية دون أن تمر بأذنيه ، ودون أن يحتاج لفهمها إلى قليل أو كثير من التفكير . وقد حفظ صاحبى بعض ما استقر فى نفسه من معانى هذه الألفاظ التى كانت تساق إليه أو تلقى فى نفسه إلقاء . فقد ألقى فى نفسه أنه قد اختطف من وطنه اختطافا ونقل إلى الوطن السعيد الذى لا يبلغه الناس لأنهم لا يجدون سبيلا إليه والذى لا يستطيع الناس أن يحتملوا الحياة الطويلة فيه لأنهم أضعف من أن يثبتوا لما فيه من حقائق الأشياء . وأول حقيقة عرضت عليه من حقائق الأشياء هذه قرأها رأى العين ، ولو أراد لتحدث إليها وسمع منها ولكنه لم يحتج إلى ذلك لأنها سعت إليه فى خفة ورشاقة فقبلت بين عينيه ، ولم تكد تفرغ من قبلتها حتى ملأت قلبه حبا لها وإيمانا بها واطمئنانا إليها . أقول أول حقيقة من حقائق الأشياء هذه هى النجاح . النجاح الذى يبلغ الآمال ويقضى الآراب ويرضى الحاجة إلى ارتفاع المنزلة وعلو المكانة ، ويرضى الحاجة إلى بسطة اليد وامتداد السلطان . ويرضى الحاجة إلى الامتياز والتفوق ، وإلى الاستعلاء والتغلب ، والنجاح الذى يعيش الناس له ويجدون فى طلبه ويكدون فى التماسه ولكنهم لا يبلغونه إلا ليردوا عنه ، ولا يظفرون به إلا ليصد عنهم لأنهم لا يعرفون له حقه ولا يلتمسونه من مظانه ولا يسلكون إليه الطرق التى تمكنهم منه وتسلبهم عليه . النجاح الذى يطلبه الناس بما ورثوا من أخلاق وبما ألفوا من عادات وبما حفظوا من تقاليد . يطلبونه من طريق الصدق والوفاء ، ويطلبونه من طريق النصيح والإخلاص ، ويطلبونه من طريق العلم والمعرفة ، ويطلبونه من طريق الجهد والمشقة ، ويطلبونه من طريق العمل المتصل والاجتهاد المنهك للقوى المقصر للأعمار ، ويطلبونه من هذه

الطرق فلا يصلون إليه . لأنها طرق قديمة قد ذهبت معالمها وأصبح سلوكها حمقا والسعى فيها جورا عن القصد وانحرافا عن الجادة وتكلفا لما لا يفيد .

ولو أنهم سلكوا إليه طرقه الطبيعية التي لا تؤدي إلا إليه والتي لا يستطيع سالكها أن يرجع ادراجة ، وإنما هو يمضي من فوز إلى فوز ومن ظفر إلى ظفر . ولو أنهم سلكوا إليه هذه الطرق لبلغوه في غير جهد ولأخذوا بحظهم منه في غير عناء وهم صاحبى أن يسأل عن هذه الطرق الطبيعية ولكنه لم يحتج إلى السؤال ، فقد ألقى في نفسه أنها نقائص الطرق المألوفة فهي لا تحب صدقا ولا وفاء ، وهي لا ترضى عن النصيح ولا الإخلاص ، وهي لا تستقيم للعلم والمعرفة وهي لا تحتل الجد والكد وهي لا تطبق العمل والاجتهاد ، وإنما هي تحب نقائص هذه الخصال جميعا . وهم صاحبى أن يسأل وكيف التخلص من الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والتقاليد المحفوظة ؟ ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال . فقد ألقى في نفسه أن شقاء الناس لا يأتيهم من أنهم لا يقدرّون على الاحتفاظ بخصال الخير أو ما يسمى خصال الخير . وإنما يأتيهم من أنهم لا يقدرّون على أن يتخلصوا من خصال الخير هذه . وإنما هم دائما أشبه بالكرات تتقاذفها الفضائل والردائل أو ما يسمى الفضائل والردائل . ولو أنهم خلصوا للفضائل لسعدوا لأنهم يستريحون إلى اليأس . ولو أنهم خلصوا للردائل لسعدوا لأنهم يبلغون من الحياة الدنيا كل ما يريدون وشك صاحبى غير طويل . ثم هم أن يسأل كيف السبيل إلى أن يخلص الإنسان من الفضائل ويبيع نفسه للشيطان ولكنه لم يحتج إلى أن يسأل هذا السؤال فقد قدمت إليه كأس صغيرة جميلة فيها شراب كدر اللون . وقيل له أحس هذه الكأس حسوا فأنك أن أتيت على آخرها انسلت من الخير كما تنسل الشعرة من العجين وانحطت عنك أثقاله كما تنحط أثقال النهار عن يشملة نوم الليل . قال صاحبى وقد شربت هذه الكأس في مهل فكنت كأنما أشرب نارا تحرق جوفى تحريقا ، ولكنى كنت أجد لهذه النار المحرقة ، لذة لا يستطيع أن أصورها وروحا لا أدرى كيف أصفه ، فلما فرغت من

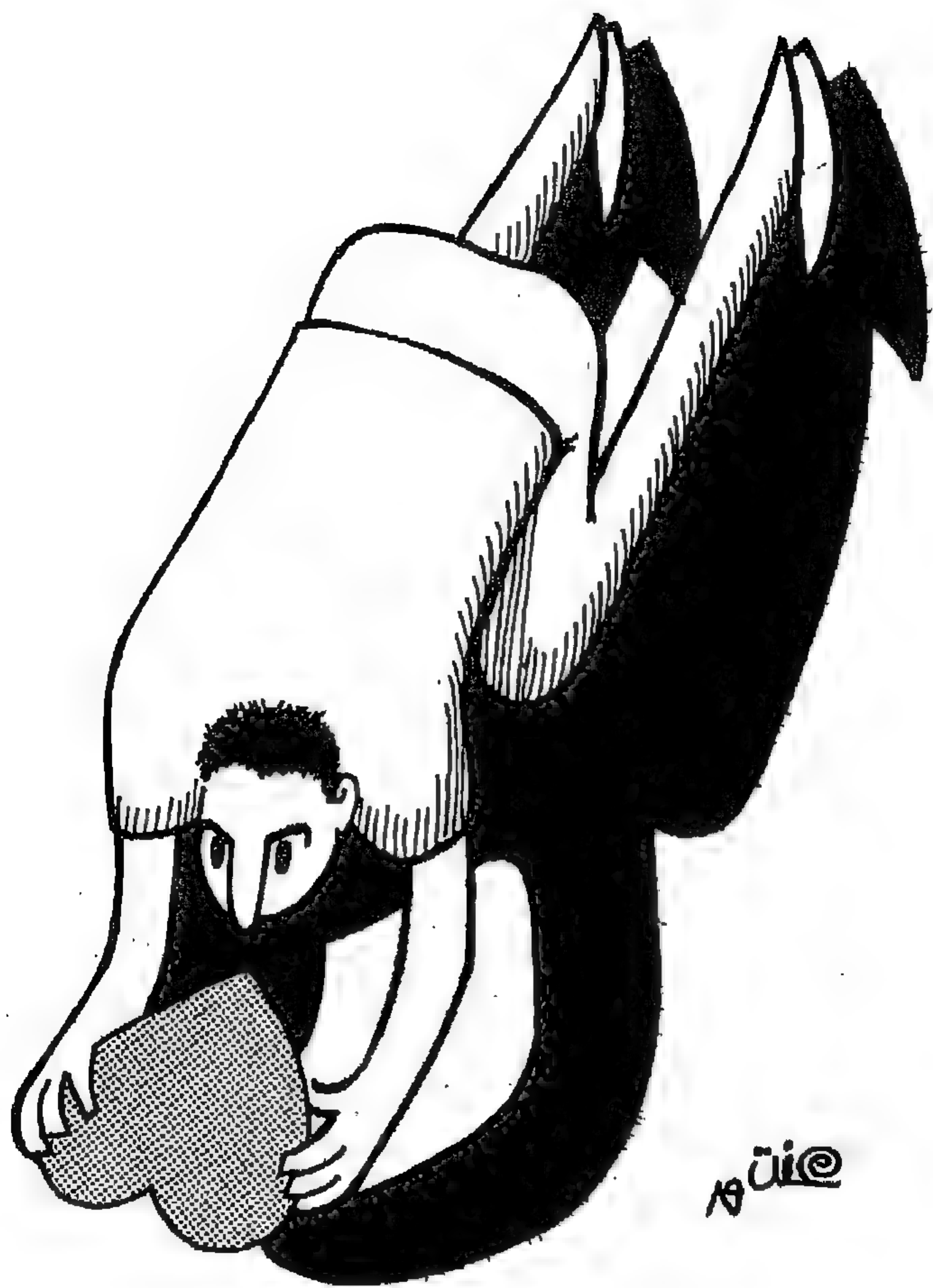
شرب الكاس سمعت غناء لم أسمع أجمل منه قط ولم أسمع أبشع منه قط.

ولست أدري وما أظن أحد يدري كيف يجتمع الجمال الرائع والقبح المروع في صوت واحد . ولكنني سمعت هذا الصوت ثم أنسيت نفسي ، ثم أفيق وإذا أنا في مكاني ذاك من الصحراء ولكن لا أرى الشمس ولا أحس حرها ولا أرى السحب المتكاثفة تسعى من الشمال ببطيئة متناقلة ، ولا أرى برقًا خاطفًا ولا أسمع رعدًا قاصفًا وإنما أرى ليلاً مظلمًا قد اطبق على الصحراء أطباقًا واضطربت فيه أشعة ضئيلة تأتي من هذه المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا . وقد عدت إلى المدينة بعد جهد . والحمد لله على أن أهلي لم يكونوا في المدينة وإنما كانوا في الريف . ولو قد رحت اليهم آخر الليل مجهودًا مكدودًا أشعث أغبر ، طائر اللب مغرق النفس ، لانكروني أشد الانكار . ولكن بينهم وبينني حساب عسير لست أدري كيف أخلص منه .

ثم أطرق صاحبي إطرقة طويلة عميقة رفع رأسه بعدها إلى وهو يقول : « وصدقني أنني انكر نفسي أشد الانكار منذ تلك الرحلة الغريبة . ويخيل إلى أنني لا أحيًا مع الناس ، وإنما أنا في حلم متصل ، والغريب أنني لم أكد استقبل النهار واتقدم فيه حتى دعيت إلى شيء أرجو أن يكون وراءه النجاح »

وأنت بعد ذلك يا سيدتي تعرفين من أمر صاحبنا مثل ما أعرف قالت السيدة وكانت أديبة أريية : « فاحذر أن تتعرض لهذا البرق الخاطف فإنني أحب أن أراك دائمًا كما أنت » . قال محدثها : « هيهات ياسيدتي أنا أثقل وزنا من أن تخطفني البرقة » .





حديث القلوب

لا أريد أن أسميه لأنى لا أريد أن يعرفه الناس ،
وحسبى أنه سيعرف نفسه . ولو استطعت أن
أخفيه على نفسه لفعلت فأنا أحبه أشد الحب ،
وأثره أعظم الإيثار ، وأكره أن يأتيه من نحوى
أيسر الجهد وأهون العناء وأقل الأذى . وأرى
أنى لا أتكلف له ذلك ولا أتصنعه وإنما هو حق
الصديق على الصديق ودين الخليل عند الخليل . ومالى لا أرى له هذا
الحق ولا اعترف له بهذا الدين وقد استقبلنا الصبا رفيقين واستقبلنا
الشباب زميلين واستقبلنا الكهولة صديقين .. لم تستطع حوادث الأيام
على كثرتها واختلافها أن تثير بيننا أيسر الخلاف فضلا عن أن تفرق
بيننا فى الآراء والأهواء .

نعم لقد استقبلنا الصبا رفيقين فجلسنا معا على حصير الكتاب ،
واختلفنا معا بين يدي سيدنا لايكاد أحدنا يفرغ من تلاوة ما حفظ من
القرآن حتى يقوم الآخر مقامه ويثلو مثل ما تلا ثم نلتقى بعد ذلك فى
مجلسنا ذاك فى ركن من أركان الكتاب فننتذكر ماسمعنا من الفاظ اللوم
والتشجيع التى كان يسوقها إلينا سيدنا فى صوت يغلظ حيناً حتى
كانه الرعد ويرق حيناً حتى كأنه النسيم ، وقلدنا هذه الحركات الطريفة
التي كان ياتيها بإحدى يديه ليحدث بها صوتاً متلاحقاً سريعاً يحثنا به
على أن نكر التلاوة كرا ليتبين مقدار حفظنا للقرآن حتى إذا صليت
العصر تركنا الكتاب غير ضيقين به ولا أسفين على تركه ، وإنما نحن
نتركه مفكرين فى العودة إليه إذا كان الغد ، ونتركه مبتهجين
بأنصرافنا عنه إلى هذا اللعب الذى سنستأنفه فى زاوية من زوايا الدار
أو فى ناحية ما على شاطئ القناة .

نعم واستقبلنا الشباب زميلين نختلف إلى مجالس العلم في الأزهر الشريف نجد حين نستعد للدرس وحين نسمعه وحين نجادل كل الاساتذة فيه ، ونلهو حين نفرغ من ذلك وحين نأخذ في العبث بأساتذتنا وزملائنا وما كنا نرى ونسمع مما كانوا يعملون ويقولون . لا أذكر ولا أراه يذكراننا اختلفنا يوما مافى أمر ذى خطر ، وانما كنا متفقين دائما مؤتلفين دائما لانتكلف اتفاقا ولا ائتلافا ، وانما تجرى أمورنا هيئة لينة ، وتمضى الحياة بنا على رسلها رفيقة رقيقة ، حتى لقد كنا نرى ما يثور بين الأصدقاء والزملاء من هذا الخلاف العارض الذى يباعد بينهم من حين إلى حين فنتكلف الضيق بحياتنا هذه التى لاتعرف خلافا ولا افتراقا فى الراى . ثم لانلبث أن نثوب إلى الضحك والابتهاج والرضى بحياتنا هذه الراضية المطمئنة .

وقد فرقت حوادث الأيام بين شخصينا أعواما طوالا أو أقصارا ولكنها لم تستطع أن تفرق بين نفوسنا وضمائنا ولا أن تخالف بين أهوائنا وأرائنا ، وانما لبثنا متفقين على البعد كما كنا متفقين على القرب ، واتصلت بيننا رسائل مازلنا نعود إليها بين حين وحين كلما كلفتنا الأيام من أمرنا شططا ، ثم التقينا بعد الفرقة وتدانينا بعد المتناهى واستأنفنا فى حياة الرجال ماضت عليه أمورنا فى حياة الصبية والشباب من هذا الود النقى والاخاء الرضى والتعاون على البر والمعروف .

وليست حياة الناس تخلو مما يؤذى ولا هى تبرا مما يسوء ، وليست حياة الناس تخلو من هذه الخصومات التى تفسد عليهم أمرهم أحيانا ، وتمنحهم القوة والإيد وحب الجهاد والكفاح أحيانا . وقد عرض لكل واحد منا حظه من هذا كله ولكن الغريب ان شيئا من ذلك لم ينل أحدا من قبل صاحبه وانما كان هذا ينالنا من قبل قوم آخرين ، فكنا نتعاون على احتمال الشر ودفع المكروه . وكان كل واحد منا يجد عند صاحبه ما يجده الصديق عند صديقه من المواساة والعون والتسلية والعزاء .

* * *

ثم مضت الأيام على ما تعودت أن تمضي عليه مستأنية متشابهة
حيثا ومتعجلة مختلفة حيناً آخر ، وجرت فيها الحوادث تباعد بينا
بعض الشيء . ثم لا تزال تلج في المباحدة بيننا حتى جعلنا ننفق
الأسابيع والأشهر لانتقي ، وننفق الأسابيع والأشهر لا يكتب أحدنا إلى
صاحبه شيئاً ، ولكننا كنا على ذلك نلتقي بين الحين والحين فلا يكاد
أحدنا يلقي صاحبه حتى ينشد ضاحكا قول الشاعر القديم :
نلبث حولا كاملا كله لا نلتقي إلا على منهج
في موسم الحج وماذا منى وأهله أن هى لم تحجج
ثم نستأنف حديثنا كاصفى ما يكون الحديث بين الصديقين
الصفيين :

وكانت أكثر أحاديثنا لا تكاد تتصل بحاضرنا ولا بحاضر الناس
ولا تكاد تتصل بمستقبلنا ولا بمستقبل الناس ، وإنما كانت تتصل بهذه
الذكرى التى نسجت منها صداقتنا نسجا ، وصورت منها مودتنا
تصويرا وكانت هذه الذكرى الحلوة تكاد تشغلنا دائما عن حاضرنا
وحاضر الناس ، وعن مستقبلنا ومستقبل الناس . ولكننا نلتقي ذات
مساء فى هذا القطار الذى ينقل الناس من الاسكندرية الى القاهرة .
ياخذ أحدنا القطار فى الاسكندرية ويأخذه الآخر فى سيدى جابر وقد
مضى القطار فى طريقه ولم يفطن أحد منا لمكان صاحبه ، ثم تكون لفظة
منه فيرانى فيسرع إلى مستبشرا مبتهجا وهى يقول ماذا ؟ أنت هنا !
والقاء مغتبطا محبورا وأنا أقول : ماذا . أنت هنا ! ثم يجلس كل منا
إلى صاحبه وما تكاد نفرغ من التحية التى تعودنا أن نتهادها حين
نلتقى حتى نأخذ فى حديث الجو ثم فى حديث السفر ثم فى حديث
القطر التى تحسن الأبطاء أكثر مما تحسن الاسراع ، وتحسن التأخير
عن مواعيدها أكثر مما تحسن الوفاء بهذه المواعيد . ثم عن
الاسكندرية التى تزدحم بالقاصدين اليها والنازحين عنها ، وتموج
بالمقيمين فيها ، ثم عن جو الاسكندرية وجو القاهرة والموازنة بين
ما يكون بينهما من اختلاف فى الصيف ومن اختلاف فى الشتاء ومن
توافق فيما يكون بين ذلك من القصول . ثم نأخذ فى حديث الصحف

الجادة والهازلة وفي حديث الأدب القديم والأدب الجديد ، وننفق هذه الساعات التي ينفقها المسافرون بين القاهرة والاسكندرية متحدثين عن كل شيء إلا عن أنفسنا ملمين بكل شيء إلا بأحداث السياسة . وما كان أكثر ما نلتقى فلا نتحدث إلا عن أنفسنا ، وما كان أكثر ما نتحدث عن أنفسنا فتعبت أثناء الحديث بالسياسة وأصحابها ونتخذ من هذا العبث ألوانا من المتاع الرفيع . أما اليوم فقد ألقى بيننا وبين أنفسنا حجاب صفيق وألقى بيننا وبين السياسة والسياسيين ستار كثيف ، وجعلنا نتحدث كما يتحدث الناس حين يلتقون على غير معرفة موثقة أو مودة متينة قد برئت من التكلف والقيت عنها الحجب والاستار ، فهم حراس على ألا يقول بعضهم لبعض ما يؤذى أو يسوء . لماذا تعمدنا أن نجتنب الحديث عن ذات أنفسنا ، ولماذا تعمدنا أن نجتنب الحديث حتى عن حاضرنا وحاضر الناس وحتى عن مستقبلنا ومستقبل الناس ، ولماذا انفقنا هذه الساعات الطوال لانتحدث إلا في هذه الموضوعات التي لا تحطم شيئا كما يقول الفرنسيون ، ولماذا نسي كل واحد منا أن ينشد حين رأى صاحبه قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقى إلا على منهج
في موسم الحج وماذا منى وأهله إن هي لم تحجج
سل السياسة عن هذا فهي التي تستطيع أن تخبرك الخبر اليقين ،
وسل السياسة عن هذا فهي التي تحسن التفريق بين الأصدقاء
والتقريب بين الأعداء ، وهي التي تحسن أن تنسى الناس أنهم كانوا
رفاقا في الصبا وزملاء في الشباب وأخلاء في الكهولة . وسل السياسة
فهي التي تحسن أن تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ، وأن
تشغل الناس بساعاتهم التي هم فيها عن ماضيهم ذاك الطويل ، وأن
تشغل الناس بما يقضون من منافع ، وما يرضون من مآرب ،
وما يحققون من آمال عما وثقت الأسر بينها من عرى متينة وصلات كان
يظن أنها أبقي على الزمن الباقي من الزمن .

وهل من الحق أننا لم نتحدث في هذه الساعات الطوال عن ذات
أنفسنا ، وهل من الحق أننا لم نذكر في هذه الساعات الطوال تلك الأيام

الحلوة التي امتلأت بلذات الصبا والشباب . وهل من الحق اننا لم نعبث بالسياسة والسياسيين واننا لم نعبث بانفسنا لانها اتصلت بالسياسية والسياسيين ؟ وهل من الحق اننا انفقنا هذه الساعات الطوال في هذه الأحاديث التي كنا نكره ان نخوض فيها والتي يستعين الناس بها على ان يحتمل بعضهم بعضا ، وهل من الحق ان هذه الأحاديث التي انفقنا فيها الساعات الطوال لم تعن أحدنا على ان يحتمل صاحبه ، فكنا نستنجد بالسجائر التي تكثر من تحريقها ، وكنا نستنجد بما عند صاحب البولمان من القهوة والليمون والبرتقال . وكنا نستنجد بتكلف الفكاهة واختراع الدعاية نجذبها من شعورها جذبا كما يقول الفرنسيون . وهل من الحق أن أحدنا لو عرف انه سيلقى صاحبه في القطار لقدم سفره أو آخره حتى لا يكون هذا اللقاء وحتى لا يكون الاضطرار إلى هذه الأحاديث الفارغة التي لاتغنى عن أصحابها شيئا إلا انها تعينهم على قطع الوقت وتمكنهم من أن يحتمل بعضهم بعضا . نعم كل هذا حق ، ولكن هناك حقا آخر لم أشك فيه ولم يشك فيه صاحبي لحظة . وهو ان السنننا كانت تهذى بما لا يغنى وان أذاننا كانت تتجرع هذا الهذيان ، وان قلوبنا في اثناء ذلك كانت تتحدث بما لم تكن تتحدث به السنننا ، وأن نفوسنا في اثناء ذلك كانت تستمتع بما لم تكن تستمتع به أذاننا . فقد كان كل واحد منا يكذب على صاحبه أشنع الكذب بما يلقي إليه من هذا الكلام الذي لاطائل فيه والذي لايدل على شيء . وكان كل واحد منا يصدق صاحبه أعذب الصدق بهذا الحديث الذي لم تكن تجرى به الألسنة ولم تكن تتلقاه الأذان ، وانما كانت تخفق به القلوب ، وتستمتع به النفوس ، وتجد فيه العقول راحة وروحا وتجد فيه الضمائر رضى وامنا .

أما أنا فقد كنت أرانى وما أشك في أن صاحبي قد كان يرى نفسه معى في ذلك المكان الضيق أمام تلك الدار الصغيرة على شاطئ القناة ، وقد اظلتنا شجرات بسطت أغصانها إلى ماء القناة من ناحية أخرى ، وقامت عليها الطير تملأ الجو بغنائها المتصل الرفيع وخفق أجنحتها المتقطع . ونحن نأخذ فيما تعودنا أن نأخذ فيه من حديث وقد

رفعنا أصواتنا لسمع كل منا صاحبه ، فقد كان غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم ، وتصايح الصبية من حولنا ، وتنادى الرجال والنساء هنا وهناك ، كان هذا كله يوشك أن يحول بيننا وبين الحديث .
نعم كنت أرانى مع صاحبى فى هذا المكان وكنت أسمع قلبى يلقي إلى قلب صاحبى حديث المودة والأخاء صفوا عفوا وعذبا نقيا . وكنت أتلقى من قلب صاحبى مثل ما كنت ألقى إليه ، على حين كانت ألسنتنا تهذى بسخيف القول لأن ظروف الحياة قد أخذت تعلم الناس أن يخفوا المودة ويظهروا النفاق ، وأن يسروا الحب ويعلنوا البغض ، وأن يكذب بعضهم على بعض حتى فى ذات أنفسهم ، وأن يخيل بعضهم إلى بعض أن الأسباب بينهم مقطعة وأن الأسباب بينهم لموصولة . ولكن مهلا . ان أخفاء المودة يوشك أن يمحوها ، وأن أسرار الأخاء يوشك أن يقتله وأن التصريح بالكذب والنفاق ، وإعلان التباعد والخصومة يوشك أن يجعل الكذب والنفاق والتباعد والخصومة اصولا لما نستأنف من حياة .

وقد وصل القطار إلى القاهرة ونهضنا يريد كل منا أن يروح إلى أهله ولم يقل أحد منا لصاحبه شيئا بلسانه لأن لسانه لم يكن يقول إلا كذبا ، وقال كل واحد منا لصاحبه كل شيء بقلبه لأن قلبه لم يكن يقول عنه إلا صدقا ، وراح كل واحد منا إلى داره وان قلبه ليتقطع حسرات لأنه لا يستطيع أن يبين عما فيه من حب دفين . ابلغ الأمر بنا أن نخافت بالمودة ونجهر بالنفاق ؟





أضف لك أملاً

راى فيما يرى النائم كأنه يسعى متروضا على
شط دجلة حين اخذ الأصيل يحسر عن الأرض
والسمااء فى اناة وريث ضوءه الشاحب الحزين .
وكان يسعى فى جنة فسيحة بعيدة الأرجاء ،
رائعة الحسن ، قد اختلفت مناظر مافىها من شجر
وثمر وزهر وعشب . فهو يتنقل بين هذا كله
مستأنيا متمهلا يقف عند هذا اللون من الوان الزينة التى اتخذتها هذه
الجنة فيطيل الوقوف ، وينظر إليه فيطيل النظر . ولا ينتقل عنه
الا حين يستيقن أنه قد رسمه فى قلبه رسما صادقا . وصوره فى ضميره
تصويرا دقيقا . وكأنه كان يحس إحساسا خفيا لا يكاد يعلمه انه حالم
لا عالم . فكان يريد أن يستبقى فى نفسه هذا الحسن البارع الذى يراه
فى هذا الجمال الرائع الذى يتمتع به ، لينعم بهما إذا ردتة اليقظة إلى
هذه الحياة البغيضة التى كان يضيق بها أشد الضيق ، لأنها كانت
تصور له آمالا عراضا ، وتقعده به عن بلوغ هذه الآمال . فكان يجد الألم
الممض والعناء الثقيل فى هذا الرجاء الذى ينفسح له وهذا اليأس
الذى يقعد به . وكان ألمه يزداد شدة وحرته يزداد لذعة حين يرى
مواكب هؤلاء الأمراء والوزراء والكتاب واصحاب المكانة فى قصر
الأمين والمأمون ، فتنازعه نفسه إلى أن يكون واحدا منهم يشاركهم فيما
يستأثرون به من الغنى والسلطان والجاه . ولكنه ينظر فإذا الأسباب
بينه وبين ذلك مقطوعة لا تريد أن تتصل . ومن أين لفتى من أوساط
الناس وعامة اصحاب التجارة فيهم أن يرقى إلى الكتابة أو الوزارة
أو قيادة الجند .

فكانت حياته متغصّة بهذا الأمل البعيد واليأس القريب . فلا غرابة حين رأى ما رأى في أحلام الليل ، أن يحرص على من يستبقى هذه المناظر الجميلة ، وهذه المحاسن الفاتنة ، ليتسلى بها إذا استيقظ عن يأس لا يريم وأمل لا ينال .

وأنه ليتنقل في حلمه بين هذه المناظر الخلابة الساحرة ، إذا هو يرى جارية حسناء ، فاتنة الحسن تتنقل مثله بطيئة متمهلة في هذه الجنة الرائعة . ولا يكاد يرى هذه الفتاة حتى تقع من قلبه موقع الحب فتملأه حتى كأنه لا يستطيع أن يشتمل غيرها شيئاً آخر . ثم يحاول أن يدنو منها ليتحدث إليها ، ولكنها تنأى عنه بسرعة وهي تقول في صوت عذب ، ولفظ حلو : هيهات هيهات ، لم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى . ثم ينظر فإذا هي قد غابت عنه ، وإذا قلبه قد خلا منها ولم يستبق إلا صورة ضئيلة جداً ان امتازت بشيء فإنما تمتاز بالفتنة المغربية والقسوة المؤسفة ويمضى في طريقه هادئاً ينحدر نحو النهر في ببطء فلا يكاد يخطو خطوات حتى يرى جارية أخرى ليست أقل من صاحبتها الأولى رواء ولا بهاء ولكنها أكثر منها زينة ، وأحسن منها شارة ، وإذا هي تلقى إليه نظرة تضرم في قلبه نارا أي نار ، فيرنو إليها من بعيد ، ويريد أن يدنو منها لينظر إليها من قريب ولكنها تنأى عنه بسرعة وهي تقول : هيهات هيهات لم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى . ثم تغيب عنه كما غابت عنه صاحبتها الأولى ولكنها قد تركت في قلبه صورة ضئيلة جداً ، واضحة جداً ، يرى فيها سحر الجمال وأية النعمة والثراء ، ويمضى في طريقه منحدرًا إلى النهر وإذا جارية ثالثة ليست أقل من صاحبتها فتونا واغراء ولكن فيها استعلاء وتكبرا وشيئا من غلظة لو كان في رجل لبغضه الناس . ولكنه يدعو إليها أشد الدعاء ، ويرغب فيها أعظم الترغيب . ولا يكاد يراها حتى يجن بها جنونه . وإذا هو يحاول أن يدنو منها ليجثو بين يديها ، ويرفع إليها الطاعة والعبادة ، كما تقدم الطاعة والعبادة إلى الأصنام : ولكنها تنأى عنه بسرعة ، وتأبى حتى أن تقول له مثل ما قالت صاحبتها من قبل . إنما تشير إليه إشارة فيها كثير من الكبرياء أن قف ، فلم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى .

وقد أخذ الفتى يفكر هذا الحلم العجيب وهو مغرق فيه لم يفق منه ،
وكاد انكاره لهذا الحلم أن يرده إلى اليقظة ، لولا أن صورة تترأى له
فيثوب إليها ، وإذا جارية رابعة ليست أقل من صاحباتها دعاء للقلب ،
واستهواء للنفس لولا أنها لا تنتظر إلا شذرا ، ولولا أن كل ما يظهر على
وجهها من هذه الآيات التي تصور دخيلة النفس ، وأعماق الضمير ،
لا يدل إلا على الغلظة والغلطية وسوء الخلق ، وهي مع ذلك تفتن كل
الفتون وتملأ قلبه هياما وشوقا وهو يريد أين يستعطفها . ولكنها عنه
مسرعة وهي تشير في أباء وجفاء ، أن قف فلم يؤذن لنا بعد في أن
نلتقى .

وقد أحس الفتى حسرة مؤذية ولوعة حرقت قلبه تحريقا وجعل
يتحدث إلى نفسه في هذا الحلم الغريب لأنه شقى بانس قد كتب عليه
الحرمان في حياته اليقظة وفي حياته النائمة . ومن بدرى لعل الحرمان
أن يكون قد كتب عليه في حياته الدنيا وفي حياته الآخرة . وإذن فقيم
خلق ؟ ولم قذفت به الأقدار في هذا العالم البغيض الذي لا تحلو فيه
يقظة ولا نوم . ولكنه يرى امرأة نصفًا ليست بالجميلة الرائعة ،
ولا الذميمة التي تنصرف عنها الأبصار . ولكنها شيء بين ذلك . في
وجهها الحازم ما يدعو إلى الحب وفيه ما يحمل على الإكبار وفيه إشراق
غريب يشيع في القلب رقة وفي النفس عطفًا وميلًا إلى الحنان . وهذه
المرأة قائمة مكانها لا تتحول عنه ولا تظهر ميلا إلى التحول عنه وقد
أخذ الفتى يدنو منها شيئًا ، فلم تنفر منه ولم تغب عنه ، وإنما أقامت
مكانها هادئة يفيض من وجهها هذا البشر الحازم ، وهذا الحنان الذي
يملأ القلب طمانينة ورضى ، وهي تشير إلى الفتى في ظرف وعطف أن
أقبل ، كأنها شهدت ما لقي من أولئك الجوارى الأربع فرقت له ،
واشفقت عليه ، وأحبت أن تسليه وتواسيه . ولكن الفتى يعرض عنها
اعراضا ، ويصد عنها صدودا ، ويوليها ظهره وهو يقول : هيهات لن
يكون بيننا لقاء ، فلست أحب العطف ولا أريد الرفق ، وليس أبغض
إلى من هذا الأمل الذي لا أجد في تحقيقه الجهد المجهد ، ولا في الظفر
به العناء الثقيل .

وكان أعراضه هذا قد ملأ قلبه غيظا فردّه إلى اليقظة على أبغض ماكان يجب أن يستيقظ عليه من الحال . على هذا الأمل القريب الذي لارغبة له فيه ، ولا حاجة به إليه ، بعد أن أفلتت منه هذه الآمال العسيرة التي كان عليها حريصا وبها كلفا ، وقد أنفق نهاره مفكرا في هذا الحلم الغريب ، مستحضرا هذه الصور الجميلة التي تراءت له ثم نأت عنه ، منكرا حظه من النوم واليقظة جميعا .

ويقبل أبوه مع المساء فإذا رآه في هذا الذهول ، لامه أشد اللوم وعنفه وأنبه أعظم التانيب ، وحثه على أن يترك حياة الأدب هذه ، التي ترقى بأصحابها إلى السحاب ، ثم لاتبلغهم من آمالهم شيئا . ورغبة في أن يسير سيرة أسرته فيعمل في التجارة المريحة التي لاتضيع على صاحبها وقتا ولا جهدا ولا تفكيرا .

ولكن الفتى يمتنع عن أبيه أشد الامتناع ويظهر له الزهد في التجارة وازدراء لحياة التجار ، ثم ينفق ليلة ساهرة لايزوق فيها النوم ، ولا يصاحب فيها إلا القلم والقرطاس ، حتى أشرقت الأرض بنور ربها ، وفرغت بغداد من مواكب الأمراء والوزراء ، والكتاب الذين استقروا في دواوينهم حين ارتفع الضحى . أقبل الفتى يسعى إلى ديوان الحسن ابن سهل الوزير . فما زال يتلطف حتى أدخل عليه ، فأنشده مدحة أعجبتة ، وانصرف عنه بجائزة أرضته ، وراح على أبيه آخر النهار بعشرة آلاف درهم نثرها بين يديه . قال الشيخ مبهورا مسحورا : لا الومك بعد اليوم ، في ازدراء التجارة والإقبال على حياة الأدباء . ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب الفتى محمد بن عبد الملك الزيات بأسباب الوزراء والكتاب ، وما زال يرقى من درجة إلى درجة ، ويسمو من منزلة إلى منزلة ، حتى نظر ذات يوم ، فإذا هو قد فوض الخليفة إليه أمور الدولة كلها . فله الأمر والنهى وإليه المنح والمنع ، وفي يده سلطان السيف والقلم جميعا ، وإذا ثروته لاتحصى ولا يقاس إليها إلا ثروة أمير المؤمنين ، ومن يدري لعله أن يكون أقدر على ابتذال المال والتصرف فيه من أمير المؤمنين . فهو يأمر وينهى في المال غير

مراجع ولا مدافع . وأمير المؤمنين لا يعطى ولا يمنع إلا عن رأيه ومشورته .

وقد فرغ من غدائه ذات يوم وأوى إلى مضجعه يلتبس شيئاً من راحة ، فيغفى اغفاءة قصيرة ، وإذا هو يرى نفسه فى تلك الجنة الفسيحة ذات الأرجاء البعيدة . وجارية حسناء ترمقه من بعيد وهو يدنو منها ، محبالها ، معجبا بها ، حتى إذا استطاع أن ينظر فى وجهها من قريب ، لم ينكر هذه الصورة ، وإنما ذكر كان عهده بها كان قريباً ! فهى إذن تلك الفتاة الحسنة التى رآها فى حلمه ذاك ، والتى كانت تظهر عليها آيات الغنى والسعة . وهى تبسم له وتدنو منه ، وتقول له فى صوتها العذب ولفظها الحلو : إذن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن أن نلتقى . قال أبو جعفر جعلت فداك من تكونين . قالت فى صوتها العذب ولفظها الحلو : أنا الثروة .

ووافق أبو جعفر باسم الثغر ، راضى النفس ، يعجب من حلمه القديم ، وحلمه الجديد . ولكنه كان صاحب جد وحزم وفلسفة فلم يلبث أن هز رأسه وتلا قول الله عز وجل : قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يهوى ، وعلى ما يحب أمير المؤمنين ، لايسأل عن العدل أين هو ! ولا يسأل عن الظلم أين هو ! وإنما يسأل عن رضى نفسه ورضى أمير المؤمنين . يسلك إليهما الطرق المستقيمة والمعوجة ويركب إليهما الحزن والسهل ويضحى فى سبيلهما بالماضى والمستقبل فيجفو الصديق ويلقاهم بالغلظة حيناً والإزدراء حيناً آخر لايعرف لهم ودا ولا يرعى لهم عهداً حتى يقول له صديقه القديم ابراهيم ابن العباس الصولى .

وكنيت أذم اليك الزمان فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنيت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا
ثم يغلو فى الاستعلاء ، ويمعن فى الكبرياء حتى يلقي أخا أمير المؤمنين أشنع لقاء . ويتعمد إيذاءه فى نفسه وجسمه بمحضر من أهل الديوان لأن أمير المؤمنين كان مغاضباً لأخيه .

وفى مساء ذلك اليوم خلا إلى ندمائه فأخذ من لهوه المادى ،
والعقلى بحظ عظيم ، وثقل عليه الشراب حين تقدم الليل ، فأغفى
إغفاءة قصيرة ثم أفاق ، وهويثلو قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث
أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فلما سأل بعض ندمائه عن
ذلك قال : رؤيا رأيته فى هذه الإغفاءة وما أرى إلا أنها من أثر
الشراب . .

ولم تكن الرؤيا من أثر الشراب ، وإنما كان حلما يعبر حلما ، فقد رأى
نفسه فى جنته تلك ، ورأى تلك الجارية الأبية المتغطسة تبسم له
وتسعى إليه ، وهى تقول : أدن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن فى أن
نصطحب . ألا تذكرنى ؟ لقد التقينا ذات مساء فى جنتنا هذه على
شاطئ نهرنا هذا ، وقد كنت تريد أن تستعطفنى . قال أبو جعفر .
نفسى فداؤك من تكونين ؟ قالت : أنا الجفوة قد أجبتك منذ اليوم فانا
صفاء لك وجفاء لأعدائك . وما أرى إلا أن الناس جميعا عدو لك .
ومضى أبو جعفر يستزيد من السلطان ويستزيد من الثراء ويستزيد
من الكبرياء والبأس حتى بلغ من العنف ما لم يبلغه وزير قبله . وسام
المسلمين من ألوان العذاب ما لم يكن المسلمون يظنون أن من الممكن
أن يساق اليهم . واتخذ تنوره ذاك الذى كان يستصفى به الأموال من
العمال ، وكان ضيقا شديدا الضيق قد أحيطت انحاؤه كلها بالمسامير
ذات الحدود المرفهة ، يدخل فيها الرجل من الناس فتأخذ المسامير
جسمه من جميع أقطاره وقد جرب أداته تلك فى أحد العمال ذات يوم
وجعل ينظر إلى هذا العذاب ويجد فيه متاعا وراحة ورضى . فلما ذكرت
له الرحمة قال : إنما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة
وما رحمت شيئا قط .

وفى مساء هذا اليوم رأى فيما يرى النائم إحدى جواريه أولئك فى
جنته تلك ، تسعى إليه باسمه ابتساما مرا وهى تقول أقبل أبا جعفر
ألا تعرفنى ؟ أنا صديقك القسوة لقد التقينا ذات أصيل فى جنتنا هذه
على شط نهرنا هذا . فقد أن لنا الآن أن نلتقى ولن يفرق بيننا
إلا الموت .

وأصبح أبو جعفر ضيقا بهذه الأحلام التي يعبر بعضها بعضا وحدث نفسه بأن يسأل في ذلك بعض أصحاب الفلسفة لعلهم يجدون لهذا النحو من حياة الناس تفسيراً . ولكنه استكبر حتى عن السؤال وخشى أن تحدث إلى الكندي الفيلسوف في ذلك أن يزدريه ، ويستخف حلمه ، ويتندر بقصته عند أمير المؤمنين . فلم يتحدث بشيء من أمره إلى أحد . وإنما تلا قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يشتهي هو لا كما تشتهي أمور الدولة ، حتى ملأ الأرض رعباً ورهباً ، وحتى كان الخوف قوام الصلة بينه وبين القريب والبعيد .

وقد توفى أمير المؤمنين وانتقلت الخلافة إلى أخيه ولكن أبا جعفر مطمئن القلب رضى البال . قد امتلأت نفسه ثقة بنفسه ، وأمن المكروه كل المكروه . فهو مستيقن أن قصور الخلفاء لم تعرف قط وزيراً يشبهه قوة وإيداء وحسن تصريف للأمور ، فلن يستغنى عنه أمير المؤمنين . ولكنه يصبح ذات يوم وقد وجد الشك اليسير الخفى إلى قلبه العنيف الأبى سبيلاً . لأنه رأى فيما يرى النائم جارية من جواريه تلك تبسم له ابتسامة حزينة ، وتنأى عنه رويداً رويداً . وهى تقول فى صوت تكاد تخنقه العبرات : وداعاً أبا جعفر ، لقد حمدت صحبتى لك ، ومعاشرتى إياك ، ولكن قضى علينا أن نفترق . قال أبو جعفر : ويحك من تكوينين ؟ قالت أنا صديقتك السطوة ، اتنسى يوم التقينا فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . وقد أفاق أبو جعفر فى ذلك اليوم مضطرب النفس بعض الشيء ، وهم أن يتلو الآية الكريمة فلم ينطلق بها لسانه وإنما ألح الشك على نفسه إلحاحاً .

ولم يأت أصيل ذلك اليوم حتى كان أبو جعفر فى سجن أمير المؤمنين المتوكل . قد جرد من سطوته وجفوته ، ثروته وقسوته . ورد إلى حال الشقى البائس الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . والذى يدعو فلا يستجاب له ويتمنى فلا يحفل أحد بتمنيه . ويشكو فلا يرق أحد لشكاته .

وقد صبر أبو جعفر على السجن ما كن السجن سهلا يسيرا ، ولكنه لم يلبث أن استحال إلى العذاب يصب عليه في الليل وقد وكل السلطان به من يسامره . حتى إذا أحس منه راحة أو شيئا يشبه الراحة نخسه بالمسلات ليرده إلى الألم وليجدد عهده بطعم العذاب . وقد صبر أبو جعفر على هذا العذاب ما واثته قوته ، واحتملت طبيعته شدة البأس ، ولكنه يرى ذات يوم على باب الحجرة التي يعذب فيها من حجرات السجن صورة يعرفها ولا ينكرها ، يراها يقظان وقد كان يرى صاحباتها نائما . وهو ينظر في وجهها نظرة المشوق إليها المفتون بها ، وكلما زاد إليها نظرا ، ازداد إليها شوقا وبها كلفا . وهو يدعو بقلبه كله ونفسه كلها ، وهي تريد أن تستجيب له وتود لو تخطو هذه الخطوات القليلة التي تدنيها منه وتقربها إليه ، ولكنها ترد عن ذلك ردا رقيقا فترسل إلى أبي جعفر نظرات حلوة فيها حنان وعطف وإشفاق . وإذا لسان أبي جعفر ينطلق بهذه الكلمة في صوت هادئ يقطعه الألم ، الرحمة . قال الذين يعذبونه وقد ظنوا انه يسترحمهم انما الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنة ، وهل رحمت شيئا قط ؟ ولم يطلب أبو جعفر إليهم رحمة وانما عرف صاحبته تلك التي رآها في جنته تلك على شاطئ دجلة فسامها باسمها .

ومنذ ذلك اليوم لم ينطق أبو جعفر إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حتى حين أدخل في التنوير الذي كان يعذب . به الناس لم ينطق لسانه بغير هذه الكلمة حتى مات .





ضییر فانر

أوى إلى سريريه راضيا ناعم البال ، وهب من
سريره موفورا طيب النفس ، ونام بين ذلك ثوما
هادئا هانئا لم تنغصه مروعات الأحلام . ولم يك
يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بنيته
وبناته بوجوه مشرقة تتألق فيها نضرة النعيم ،
وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ،
وحملت إليه أصواتهم الرصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم فى
صوت حلو يجرى فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرقيق ، وانفق
معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد
وفرغ لنفسه ليصلح من شأنه قبل ان يغدو إلى عمله ، وكان عمله
خطيرا ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته بها أعظم منه خطرا ، لأنه
كان قوى الضمير حريصا أشد الحرص على أداء الواجب كاملا ، وان
ابغض شىء إليه أن يتهمه أحد أو أن يتهم هو نفسه بأيسر التقصير .
ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله أقل من عنايته بالعمل
والواجب ، فقد استقر فى نفسه منذ بلغ الشباب أن من كمال المروءة أن
يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ماوسعه ذلك ، وأن تقع عليه
العين فلا تقتحمه وتبلغه الأبصار فلا تزور عنه ولا تعدوه إلى سواه ،
ذلك أدنى أن يحببه إلى النفوس ويحسن مكانه فى القلوب ، ويجعل
محضره خفيفا و عشرته شيئا يطلب ويرغب فيه .

وكان الله قد منح صاحبنا حظا من جمال الخلقة وخلقه في تقويم حسن فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماما بمنظره وشجعه الناس على ذلك بما كانوا يهدون إليه من ثناء ، وشجعه النساء خاصة على ذلك بما كن يحمدن من صورته الرائعة وزيه الأنيق وحسن تلففه في اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشارته أكثر مما تعود الناس أن يصنعوا فكان يخلو في غرفته كل صباح ، وكان يخلو في غرفته كل مساء وقتا غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليغدو إلى عمله أو ليروح إلى ناديه ، فلا يكاد أهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع في نفوسهم فجاءة جديدة على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم إياه .

وقد خلا في ذلك الصباح إلى نفسه في غرفته فاطال الخلوة وغير وبدل من زيه ما استطاع التغيير والتبديل ، حتى إذا أعد نفسه للناس أو اعتقد أنه أعد نفسه للناس ، وهم أن يخرج ألقى إلى المرأة هذه النظرة السريعة الخاطفة ، التي كان يلقيها إليها دائما كأنما يسألها رأيها الأخير قبل أن يخرج للقاء الناس . وكان رأيها الأخير دائما حسنا مقنعا يشيع في نفسه شيئا من الرضى الهادئ والثقة المنتظرة . ولكن رأى المرأة الأخير في ذلك الصباح لم يكن حسنا ولا مقنعا ولا مشبعا للرضى والثقة وإنما كان مزعجا مروعا . فلم تكد عينه تبلغ المرأة حتى ارتدت عنها مذعورة ثم عادت إليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت إلى قلبه ذعرا يبلغ الهلع وإذا هو يرتد عن مكانه ويرجع إدراجة مسرعا ويحول وجهه عن المرأة تحويلا تاما حتى لاتخطىء عينه فتمتد إليها مرة أخرى . وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا سريعا متصلا ، وأخذت جبهته تنضح بشيء من عرق بارد ، وأخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه وجعل الدوار يعيث به وبكل شيء من حوله حتى خيل إليه أن الغرفة كلها قد استدارت فأصبحت المرأة وراءه وأصبحت هذه المائدة التي كان يجلس إليها ليصلح من شأنه أمامه . وإذا هو مضطر إلى أن يتمسك ويتمالك ، وإذا هو عاجز عن ذلك فيجلس على أول كرسي يبلغه مضطربا ممعنا في الإضطراب حائرا لا يكاد يتبين

حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها . ومع ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيرا جدا غريبا جدا فى وقت واحد . كان يسيرا لأنه لم يكن إلا ماراى فى المرأة وكان غريبا لأنه لم ير فى المرأة وجهه وانما رأى أقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه ، وأبشع منظر يمكن ان يمتحن الله به الناس أو القروء . وقد طال جلوسه على كرسية وأطراقه إلى الأرض وإغراقه فى " حيرة " ثم أخذ جسمه يهدأ شيئا فشيئا وجعل قلبه يستقر فى صدره قليلا قليلا وامتدت يده فاترة إلى منديل أمره على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه إليه وجعل يسخر من هذا الروع الذى ألم به فأكبر الظن أن شيئا من علة قد ألم بمعدته فأفسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم انشأ يسأل نفسه عما طعم أمس وعما شرب فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئا فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب فى كل يوم ، ولكن بمعدته شيئا من غير شك ، هو الذى خيل إليه ماخيل حين مد عينه إلى المرأة . ومن المحقق انه لم يكن يحس ألما ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض . ولكن لاسبيل إلى تعليل هذه الظاهرة الطارئة إلا بشيء أصاب معدته أو كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئا من طمأنينته فعاد إلى شأنه يصلح منه ما أفسد هذا الاضطراب . فلما بلغ من ذلك ما أراضاه أزمع أن خرج من غرفته دون أن يسأل هذه المرأة المشئومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .لقى فى روعه مع كثير من اللباقة والمكر ، أن من الحق عليه أن يسأل هذه المرأة التى تعود أن يسألها دائما ، والتى تعودت أن تصدقه دائما ، فمن يدرى لعل شيئا ألم به فغير من وجهه وشكله وهو لا يدرى وما ينبغى أن يظهر الناس منه على ما لا يحب أن يظهروا عليه ، وقد ألقى نظرتة إلى المرأة فارتدت عينه مذعورة ، ثم عادت إلى المرأة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حلمت إلى قلبه جزعا وهلعا وإذا هو يجاهد ليحبس صيحة قد همت أن تخرج من حلقه فتملأ الغرفة من حوله ، وتدعو إليه أهل الدار ، ولكنه رد هذه الصيحة إلى مستقرها ولم يتح

لها أن تنفجر واستأنف اضطرابه ذاك . ثم ثابت إليه نفسه بعد لآى
فيسرع إلى الجرس يدقه فإذا دخلت عليه الخادم رفع إليها وجهه وظل
صامتا حينما يريد أن يعرف أتنكر الخادم من أمره شيئا . فلما رأى
الخادم كدأبها كلما دعاها إليه قائمة واجمة تنتظر أمره لاتنكر شيئا
ولا تعرف شيئا أولا تظهر معرفة ولا إنكارا قال لها فى صوت هادىء
يكاد يضطرب أنبئى سيدتك انى انتظرها واقبلت زوجه بعد حين
فراته قائما باسم ينتظر مقدمها فلما رآته اخذها منظره كما تعود أن
ياخذها كل صباح وكل مساء ، وسألها هو أتنكرين من أمرى شيئا ؟
قالت متضحكة : وماذا تريد أن انكر من أمرى ! انما أنت كما تعودت
دائما ان أراك رائع الشكل جميل المنظر خلابة للنساء . إلى أين تريد أن
تغدو اليوم فأنى أراك تكلفت عناية بزيك قلما تتكلفها ؟ قال وإلى أين
اغدو إلا إلى عملى . قالت فإن عملك لا يحتاج إلى كل هذا التألق . ولكنه
أعاد عليها قوله : أفى الحق انك لاتنكرين منى شيئا ؟ قالت مغرقة فى
الضحك فى الحق انى انكر منك هذا الإسراف فى التجميل . قال فى
شئ يشبه الذهول : أن هذه المرأة تنبئنى بغير ماتقولين . ثم ألقى
على المرأة نظرتة الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعورا يقول لامراته
التمسلى لى طيبيا .

وقد عاد طيب وطيب وطبيب ، عادوه متفرقين وعادوه مجتمعين
وفحصوا من جسمه كل ما يمكن أن يفحصوا وامتحنوا كل ما يمكن أن
يمتحنوا . فلم يروا به بأسا ولم يشخصوا له علة ولم يصفوا له دواء .
وقال له قائلهم : ما نرى بجسمك من بأس ، فالتمس دواء نفسك عند
نفسك فما نخلن إلا أن فى ضميرك شيئا يؤذيك على علم منك أو على غير
علم ، وقد غيرت المرأة فى غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت
كلما التمس نفسه فيها ردت إليه صورة غير صورته وشكلا غير شكله ،
وملأت قلبه فرقا وروعا ، وقد تسامع أعوانه وأصحابه بأنه مريض منذ
لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون إليه ليعودوه يلقاه أقلهم
ويرد عنه أكثرهم وينبئ أولئك وهؤلاء من أمره بغير الحق ، تخترع
لهم العلل ، وتبتكر لهم الأدوية فيصدق منهم من يصدق ويكذب منهم من

يكذب ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الأصدقاء الذين سعوا إليه وسألوا عنه ثم أتيح لهم أن يروه . وكنت أثيرا عنده كما كان أثيرا عندي لا أخفى عليه من ذات نفسى شيئا كما لا يخفى على من ذات نفسه شيئا . ولقد لقيته فيمن لقيه من أصحابه ذات يوم فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه أخماسا لاسداس فى أمر علة . نصدق نحن فى حيرتنا ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لا يكاد يخفى على فلما هممنا أن ننصرف استبقانى فى لباقة وظرف فبقيت ومضى الحديث بيننا ألوانا ساعة من نهار ثم عدنا إلى علة فإذا هو يتحدث إلى بأمرة كله فى وضوح وجلاء .

قلت ضاحكا . أهلك قرأت هذه القصة الإنجليزية التى كتبها أوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جرى ، فإن فيها ما يشبه قصتك من بعض الوجوه . قال فإنك تعلم أنى لأقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة أوروبية ولا أعرف أن هذه القصة قد نقلت إلى العربية . قلت : أولم يتحدث إليك قط يتحدث عن هذا الكتاب وكتابه . قال . سمعت أطرافا من الحديث عن أوسكار ويلد ، ولكن لم أسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلا ولا كثيرا فحدثنى أنت عن هذا الكتاب قلت : لقد قرأته منذ زمن بعيد وأذكر أنه يعرض على قرائه قصة فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورة تطابق شكله جمالا وروعة . وقد اقترف هذا الفتى فى مستقبل أيامه سيئات كثيرة واجترح أثاما مختلفة ، فبغضت إليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة فى عينه أشنع التقبيح ، فنفاها من حجيرات داره وغرفاته إلى حيث ينفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين إلى حين تزايدا من بغضه لها وسخطه عليها واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم أصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا إلى جانب صورته ، أراد أن يمزق الصورة فمزق صدره ، وقد أراد أوسكار ويلد فيما أظن أن يصور تأثير الندم على ما يقترف من الآثام فى بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه إلا مرآة لضمير دوريان جرى . رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة .

قال صاحبى فى صوت يأتى من بعيد : وما أنا وهذه القصة . قلت فى

صوت يأتى من بعيد أيضا : خشيت أن تكون قد قرأتها أو سمعت عنها
فأثرت فى أعصابك تأثيرا سيئا ، فما أكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها
فى أعصاب الناس ، فتحملهم على غير ما أراد المؤلفون أن يحملوهم
عليه . قال صاحبى وعلى ثغره ابتسامة حزينة هون عليك ، فانى لم أقرأ
هذا الكتاب ، ولم أسمع عنه ، ولم أتأثر به قليلا ولا كثيرا ومع ذلك فإن
من حقه أن يقرأ ، قلت : وقد ندمت بعد ذلك على ماقلت - فالتمس فى
اثناء نفسك وأحناء قلبك خطأ لعلك قد دفعت إليه أو مساءة لعلك قد
قدمتها إلى برىء . فانى أعلم أنا نجهل من أمر الضمير الإنسانى أكثر
مما نعلم ، ومن يدرى لعل فى ضميرك الخفى ندما على شيء أتيت به ثم
أنسيته ولعلك أن استكشفت أنه ان تصلحه وتستغفر الله منه فتقل هذا
الندم الذى أخشى أن يكون هو الذى ينفص عليك الحياة . وتركت
صاحبى حائرا مبهوتا ثم انبثت بعد أيام أنه يمرض فى بعض
المستشفيات . فلما سألت عن جلية ذلك قص على محدثى عجبا من
الأمر . فقد كان صديقى هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم وبقي
أقلهم . وكان الذين ماتوا - رحمهم الله - يرتفعون عن الصغائر
ويمتنعون على الدنيات وتأبى نفوسهم فيما تأبى جحود العارف ،
وانكار الجميل . ورثوا ذلك عن آبائهم وأحبوا أن يورثوه أبناءهم فحال
بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث الذى غير مقاييس الأشياء ، وادار
أعمال الناس وأقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة لاعلى
ما كان يألف أبائنا من رعاية الحق وتقدير المعروف ، وكان صديقى هذا
البائس أحرص الناس على أن يشبه الذين سبقوه من قومه فى كل
ما كانوا يأتون ويدعون من الأمر ، ولكن أحداث الدهر ، وخطوب الأيام
وما تحمل من رغبة ورهبة ومن إغراء وتنفير كانت أقوى من خلقه
وإرادته فلم يستطع أن يكون خليقا بالذين سبقوه من قومه . وإنما كان
خليقا بالذين عاصروه من أتراكه كان قومه يستحيون من أنفسهم قبل أن
يستحيوا من الناس وكان هو يستخفى من الناس ولا يستخفى من
ضميره . ولا من الله وهما معه أينما كان . فلما قصصت عليه قصة
أوسكار وولد كنت كأنما كشفت عن نفسه الغطاء فأصبح يتحدث إلى

امراته وإلى خاصته بأن هذا الوجه القبيح الذى كان يراه فى المرأة لم يكن وجهه ، فوجهه مازال جميلا رائعا وانما هو امرأة ضميره لأن ضميره بشع دميم .

ثم يمضى فى حديثه فيقول : لا تنكروا مما أقول لكم شيئا فإنى لا أرى هذا الوجه البشع إذا نظرت فى المرأة فحسب بل أنا أراه كلما خلوت إلى نفسى . أراه يحمله جسم كجسمى وأراه يجلس إلى غير بعيد ، ينظر إلى شذرا أول الأمر ثم لايزال يرفق بى ويظهر الرقة لى حتى اطمئن إليه فيحدثنى فى صوت هادىء رقيق عن سيئات تقدمت بها إلى الناس فيما مضى من الدهر ثم يقول لى فى صوت هادىء يخيفنى أشد الخوف لىتك لم تفعل . فقد كنت أرانى جميلا فجعلتنى قبيحا بشعا ، وكنت أرانى سعيدا فجعلتنى شقيا بائسا فقد احتملت وحدى قبحى وبشاعتى وشقائى وبؤسى ، ثم أعيانى احتمال هذا الثقل قرأيت أن تشاركنى فى النهوض به فسألزمتك منذ الآن كما يلزم الظل صاحبه ، وأى غرابة فى أن يلزم الضمير صاحبه ، وكان صديقى البائس يقول ذلك لأهله وخاصته فى صوت غريب يملأ قلوبهم خوفا وأشفافا ورحمة وعطفا ، ثم كان يلح عليهم فى ألا يخلوا بينه وبين نفسه فلزموه واطالوا البقاء معه ولكن بغضه لظله هذا . أو لضميره هذا جعل يعظم ويشد كما أن حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشد أيضا ، فقد رأى ضميره فى المرأة أول الأمر ثم جعل يراه فى الخلوة بعد ذلك ثم أصبح يراه حين يخلو إلى نفسه وحين يحيط به أهله وخاصته وإذا أمره ينتهى به إلى الجنون التائر أو إلى ما يشبهه وإذا أهله مضطرون إلى أن يمرضوه فى بعض المستشفيات التى تعالج فيها الأعصاب المريضة .

ليتنى لم أكشف لصاحبى عن نفسه الغطاء ، استغفر الله ماذا أقول . وهل يزيد الكتاب على أن يكشفوا للناس عن نفوسهم الغطاء

رقم الايداع بدار الكتب ٧٢٩٢ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى ٣ .. ٣٢٣ - ١٢٤ - ٩٧٧ ISBN

آلات بالاسواق

المنظف السحري
الجاف
متعدد الأغراض



السحري



ينزيل الأوساخ والبقع الشحمية بأمان
ويترك الأيدي .. نظيفة .. ناعمة .. معطرة ..

لأيدي المحرفين - لغسيل الملابس النظيفة - لتنظيف الموبيليا
لتنظيف القيشاني والسيراميك - لتنظيف أجهزة البوتاجاز

إنتاج شركة الإسكندرية للنزويوت والإصابتون